المشرق

النُّجح الضَّامن

بغبطة السيّد البطريرك كيرلُّس الثامن

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي

ما كاد الله تعالى يستأثر بعبدهِ بطرس الارض لينقلهُ الى دار الخلود حتى لطف بطرس السماء بقطيع الفقيد وشفق على يُتم كنيستهِ فاقام لاخوتنا الروم الكاثوليك الافاضل يوم عيدهِ الميمون راعياً صالحاً وأَباً غيوراً يعدُّونهُ خير خلف لمن سلف ألا وهو صاحب الغبطة السيد الجليل كير كيريون كيرلُّس جحا رئيس اساقفة حلب وسلوقية وقورش. فدقَّت البشائر وعلت اصوات الفرح واخذ الجميع يهنّئون نفوسهم اذ حصلوا على مثلهِ بطريركاً اشارت اليهِ القلوب قبل ان تتَّفق على انتخابهِ الاصوات. امَّا نحن فنتقدَّم لغبطتهِ ولكل طائفة الملكيين تهانئنا الخالصة ونرفع الى ابي الانوار اكفَّ الضراعة ليؤيّد مختارهُ بيمينهِ القادرة ويقرن بالنجح صوالح اعمالهِ ويبلّغهُ اقاصي آمالهِ لمجد الله الاعظم وخير الكنيسة الكاثوليكيَّة فيعدَّ للرب شعباً كاملاً ويتمّم رغبة ابي المؤمنين في توثيق عرى الاتفاق بين الاخوة وجَمع القلوب في عواطف الحبّ ووحدة الايمان لتكون عمَّا قليل حظيرة واحدة وراعٍ واحد

*

ولمَّا كان غبطة البطريرك الجديد هو الثامن من اسمهِ على كرسي انطاكية الرسولي وطلب الينا بعض ادباء طائفة الروم الكاثوليك ان نسطّر لهم ملخص تاريخ الذين

سبقوا عهده بهذا الاسم اجبنا بطيب الخاطر الى طلبهم لاسيَّا انّنا رأينا اختلافاً كبيراً في القوائم التي سُردت فيها سلسلة بطاركة انطاكية فترى البعض لا يذكرون الّا ستّة اشخاص اشتهروا باسم كيرلّس والبعض خمسة او اقلّ. فراجعنا الكتبة الموثوق بهم في هذا الامر كالبولنديين في المجلّد الرابع من تموز حيث عدّدوا بطاركة انطاكية من كاثوليكيين ويعاقبة وغيرهم وراجعنا ايضاً الشرق المسيحيّ للوكيان وتاريخ بارونيوس المطوَّل. ومن كتب الشرقيين التي اعملنا فيها النظر كتاب التواريخ المليَّة في شرح احوال البطريركة للقس يوحنا العجيميّ وكتاب الخلاصة الوافية في تاريخ بطاركة انطاكية للخوري ميخائيل بريك الروميّ الاورثذكسيّ. فقابلنا بين هذه التآليف كلها واستخلصنا منها ما يأتي مع فوائد اضفناها اليها

﴿ اسم كيرلّس ﴾ اوّل ما ظهر اسم كيرلّس في القرن الاوّل للميلاد استعملهُ الرومان واشتقّوهُ من اليونانيَّة كيريوس (Κύριος) بمعنى الربّ والسيد فصاغوهُ على مثال الاعلام المصغَّرة فصار كيرلّس اي السيد الصغير. كما قالوا « Plautillus » و « Domitilla » في تصغير « Plautus » و « Domitia ». وفي تواريخ شهداء النصرانيَّة عدَّة من الابرار الذي دُعوا باسم كيرلّس اعظمهم في سوريَّة كيرلّس الشمّاس البعلبكيّ الذي مات في سبيل الايمان القويم على عهد يليانوس المارق قتلهُ الوثنيُّون في بعلبك بعد ان مثَّلوا بهِ واذاقوهُ الموت الوانًا. وقد شرَّف هذا الاسم رجالٌ تفتخر بهم النصرانية لا يزال ذكرهم حيًّا في الكنيسة منهم كيرلّس الاورشليميّ الذي ناصب شيعة آريوس مدَّة نحو اربعين سنة فردَّ سَورتها وكبح جماحها وتوفي سنة ٣٨٩. ومنهم كيرلّس الاسكندريّ الذي دافع عن وحدة الاقنوم في المسيح وعن الامومة الالهيَّة فكسر شوكة البدعة النسطوريَّة وافاز الايمان الكاثوليكي بانتصار باهر كان موتهُ سنة ٤٤٤. ومنهم رسول الصقالبة القديس كيرلّس الذي ارجع الى الايمان في بلاد الفلاخ والبغدان واللان وكرواتيا ودلماتيا شعوبًا عديدة بشَّرهم بالانجيل مع اخيهِ ميثوديوس في القرن التاسع. وكانت وفاتهُ في رومية فامر البابا ادريان الثاني بان يُدفن في القبر الذي كان اعدَّهُ لنفسهِ. وهؤلاء القديسون الثلاثة المدعوُّون باسم كيرلّس قد احيا ذكرهم البابا لاون الثالث عشر المالك سعيدًا في الكنيسة الغربيَّة وامر بان تُنتظم اعيادهم في سلك المتقدمين بين اولياء الله

۞ بطاركة انطاكية المعروفون باسم كيرلُس ۞ انطاكية اوَّل كرسيّ بطريركي جلس عليهِ اسقف باسم كيرلُس وكان ذلك في اواخر القرن الثالث. خلف الاسقف تيماوس في رئاسة مدينة الله انطاكية في السنة الرابعة للقيصر پروبوس اي السنة ٢٨٠ وهو البطريرك التاسع عشر منذ جلس بطرس هامة الرسل على الكرسيّ الانطاكيّ. وقد جعلهُ الخوري ميخائيل بريك العشرين في الرتبة وذلك لانهُ اقحم بطريركاً دعاهُ مكاريوس بين دمتريانوس البطريرك الخامس عشر وبولس السميساطيّ الاراتيكيّ ولم نجد ذكرًا لمكاريوس المذكور في تاريخ اوسابيوس وفي السلاسل البطريركيَّة التي راجعناها. وكان كيرلُس الاوَّل رجلًا بارًّا ادرجت الكنيسة اسمهُ في سجلّ القديسين وتذكرهُ في اليوم ٢٢ من تموز وجاء في السنكسار الرومانيّ انهُ اشتهر بعلمهِ وقداستهِ. وفي تاريخ العجيميّ انهُ « كان رجلًا بسيطاً جدًّا وغيورًا وذا خصال حميدة وفضائل وافرة ودبّر الكنيسة بمثل صالح ». ولا مراء انهُ جاهد في سبيل الايمان وتحمَّل محنًا شتَّى على عهد ملكَي رومة المغتصبَين ديوقلسيان ومكسيميان. وقد نقل بارونيوس عن مُنبريسوس انهُ مات في الحبس. الّا ان اوسابيوس المؤرخ لم يدوّن هذا الامر في تاريخهِ مع انهُ عاش في زمانهِ ليس بعيدًا عنهُ. امَّا تاريخ وفاتهِ فقد اختلف فيهِ الكتبة والارجح انهُ توفّي سنة ٣٠٠ بعد ان دبَّر الكرسيّ مدَّة عشرين سنة

ولم يظهر اسم كيرلُس على الكرسيّ الانطاكي بعد وفاة كيرلُس الاوَّل حتى اواخر القرن الثالث عشر. قال المؤرخ اليونانيّ باخيمراس: « ولمَّا توفي ارسانيوس (وهو البطريرك المئة والرابع عشر) انتخب اساقفة الشام لهُ خلفًا كيرلُس (وهو الثاني باسمهِ) وكان رئيس اساقفة صور. امَّا اهل قيليقية فاختاروا ديونيسيوس اسقف مدينة پُمپيوپوليس من اعمال قيليقية » وكان ذلك سنة ١٢٨٧ للميلاد فجرى نزاع بين المنتخَبَين لم يخمد اوارهُ الّا سنة ١٢٩١ بوفاة كيرلُس الثاني فصار تدبير الكرسيّ في يد ديونيسيوس الى وفاتهِ سنة ١٣٠٦. وكيرلُس هذا لم يذكرهُ الخوري بريك في تاريخهِ بل لم يذكر احدًا من البطاركة الذين خلفوا ايرثاوس الاوَّل الى اغناطيوس الثاني وهم اثنا عشر بطريركًا في جملتهم كيرلُس الثاني وكيرلُس الثالث وانما ذكر فقط بطريركًا يدعوهُ اثناسيوس ولا ذكر لهُ في غيرهِ من المؤرخين (١

١) وقد انتبه الخوري ميخائيل بريك الى هذا الخلل فكتب في تاريخهِ بعد ذكر اثناسيوس ما نصّهُ

ثم خلف ديونيسيوس السابق ذكرهُ كيرلُس آخر الثالث باسمه سنة ١٣٠٦ . وقد ذكرهُ المؤرخ الرومي نيقيفورس كالستوس وهو من كتبة القرن الرابع عشر على انَّ بعض اصحاب الانتقاد لا يثقون بقول نيقيفورس ويظنُّون انهُ خلط بين كيرلُس الثاني والثالث وقد جاء في سلسلة بطاركة انطاكية العربيَّة التي نشرها السمعاني ان خلف ديونيسيوس كان يُدعى كيريانوس لا كيرلُس والله اعلم . وامَّا اخبار هذا البطريرك فمجهولة

ورابع البطاركة الانطاكيين الذين عُرفوا باسم كيرلُس جلس على الكرسي البطريركي سنة ١٦١٨ وهو على حساب لوكيان البطريرك المئة والخمسون وفي سلسلة العجيمي المئة والثامن والعشرون . وفي تاريخ الخوري بريك المئة والتاسع والثلاثون . وقد خلف في البطريركيَّة اخاهُ اثناسيوس الثالث المعروف بابن الدبَّاس وكان اثناسيوس كاثوليكيًّا شهد بذلك نيقيفورس مليسَّان مطران جزيرة نكسوس والاب حنًّا غوتيار المرسل اليسوعي وكلاهما عاش في ايَّامهِ (١ . وقد جاء في مجلَّة كنائس الشرق (ج ٢ ص ٤١٢) ان اثناسيوس عقد مجمعًا في دمشق سنة ١٦١٧ فصادق مع اساقفتهِ على القضايا الخمس التي تحدَّدت في المجمع الفلورنتيني . وزاد القس يوحنَّا العجيمي في تاريخه (ص ٣١٠) انهُ اتفق واياهم على ان يرسلوا قاصدًا من قبلهم الى البابا الروماني لكي يطلبوا الشركة لكنهُ لم يستمرَّ زمنًا مديدًا في الكرسي . ولمَّا خلفهُ اخوه كيرلُس الرابع اقتفى آثاره وعضد الايمان الكاثوليكي وقد تعرَّض لهُ في سلطتهِ بعض اخصامهِ . قال صاحب مختصر تاريخ الروم الملكيين (ص ١٩) : « انَّ البعض من اضداد كيرلُس كان قد انتخب السيِّد اغناطيوس مطران صيداء فوقع وقتئذٍ الشقاق بين البطريركين وكان اغناطيوس غنيًّا لكنهُ لم يكن محمود الصفات وقد تحزَّب لهُ الامراء من آل معن فاضطهد كيرلُس وجماعةً يكابد نفقات جزيلة وقيل انهُ وافق على قتلهِ فقُتل ». وقد جرى ذلك سنة ١٦٢٨ لكنَّ اغناطيوس لم ينتفع من اثمهِ زمنًا طويلًا فقُتل ايضًا بعد ثلاث سنوات . قال القس يوحنَّا العجيمي في التختيكون (ص ٣١٠) : « وكيرلس هذا كان كاثوليكيًّا

بالحرف : (ومن بعد هؤلاء لم عدنا وقفنا على تاريخ لبطاركة انطاكية لا في الكتب ولا في التواريخ الافرنجية ولا في الرومي ولا العربي وكان انتهاؤهم الى ايَّام فتوح الملك الظاهر لمدينة الله . ومن ذلك الحين عُدمت اخبارهم بالكليَّة لعدم ظهور مؤرخ جديد يتبع تواريخ علماء الملَّة المسيحيين وكل ذلك لكثر الهم والغمّ والبسر والضيق الذي اصاب بني المعمودية سببهُ كثرة خطاياهم »

١) راجع مجلَّة اصداء الشرق (Echos d'Orient. IV p. 274)

مثل اخيهِ اثاسيوس وكان دائماً ينادي ضدَّ الانشقاق » وقد سمع الله دعاءهُ لانَّ خلفاءهُ افتيميوس كرمه الثاني واثناسيوس الاوَّل الصاقزلي ومكاريوس الثالث جاهروا بمعتقد الكنيسة الرومانيَّة ونما عدد المؤمنين حتى ان الاب بسُّون اليسوعيَّ دوَّن في كتابهِ سوريا المقدَّسة (ص٧٢) انَّ عدد الكاثوليك في دمشق وحدها كان بلغ سبعة آلاف نفس

كيرلس الخامس رُقي الى الكرسيّ الانطاكي سنة ١٦٧٢ فدبَّره الى اوائل سنة ١٧٢٠ وقد لقي في ناوفيطوس مطران حماة وفي اثاسيوس الرابع خصمين ألدَّين ناصباهُ وفصلاهُ مدَّة عن كرسيهِ لكنَّ الله اظفرهُ باعدائهِ فساس رعيَّتهُ بحزمٍ ودراية . وقد اثنى على هذا البطريرك الشهير دمتريوس پروكوپيوس فنعتهُ « برجل رسولي سامي القداسة ذي معارف واسعة بارع باللغتين العربيَّة واليونانيَّة ضليع بتفسير الكتاب الالهي ومبشِّر نشيط لكلمة الله » امَّا انتماؤهُ الى السدَّة الرومانيَّة فقد وصفهُ الاب ناخي رئيس رسالة اليسوعيين السوريَّة في ايَّامهِ (١ قال: « انهُ ارسل الى البابا اقليميس الحادي عشر صورة ايمانهِ مع عصاة الرعاية دلالةً على خضوعهِ التام لنائب المسيح سنة ١٧١٧ ». وفي ايَّامهِ علا منار الكثلكة في بلاد الشام واشتهر كثيرون من الاساقفة والكهنة المستقيمي الايمان. قال صاحب التواريخ المليَّة: « وقد تظاهر كيرلُس جدًّا في اواخر سني رئاستهِ في رفض الانشقاق وفي الاتحاد مع الكنيسة الرومانيَّة وماكان يكلّ عن الوعظ والتعليم لشعبهِ وكان عنده كهنة كثيرون ذوو ايمان حارّ وغيرة ومعرفة لم يكلُّوا عن التعليم والكرز بامر البطريرك الصالح ويثبتوا الجميع في الاعتقاد بالرأي المستقيم ». وقد شهد لهُ ايضاً الخوري ميخائيل بريك حيث قال بعد ذكرهِ استعفاء اثاسيوس الرابع: « ثم انَّ المغبوط كيرلُس دبَّر الشعب حسناً ورعى رعيَّة المسيح بهدوٍ وكان صاحب سعد وجاه امام الحكَّام وطاعت لهُ البلاد وجميع الابرشيَّة وعمَّر الكنيسة وزيَّنها وسعى بالحكمة والتدبير وكذلك عمَّر القلاَّية ولهُ اتعاب كثيرة مع المسيحيين ورفع عنهم مظالم شتَّى وهو مشكور للغاية (٢ »

امَّا كيرلس السادس فهو سارافيم طاناس ابن اخت المطران افتيميوس مطران صيداء

---

١) راجع الرسالات البانية (Lettres édifiantes I, 87)   ٢) جاء في مجلَّة اصداء الشرق (٥ : ٢٢٠) ان كيرلُس ألَّف « كتاب الدمع المسجوم على انشقاق الروم ». لكنَّ هذا غلط فانَّ الكتاب المذكور من تآليف الاب فروماج اليسوعي . وكذلك ورد هناك (ص ٣٢٨) انَّ كيرلُس الخامس جمع في طرابلس مجمعاً لتعزيز الايمان الكاثوليكي وسند قولهُ هذا الى تاريخ القس يوحنا العيسي وقد راجعنا هذا الكتاب فلم نجد اثراً للمجمع المذكور

واكبر انصار الكثلكة في زمانه. وكان هذا قد درس في مدرسة مجمع انتشار الايمان في رومية واحرز ثقة الكرسي الرسوليّ الذى وكل اليه بعض المهمّات في ايّام كيرلُس الخامس. فلمّا توفي في حلب اثناسيوس الرابع خلفُ كيرلُس الخامس سنة ١٧٢٤ اختار الاساقفة المجتمعون في دمشق سارووفيم المذكور(١. الّا انّ احد كهنة البطريرك اثناسيوس يدعى سلبسطرس لم يرضَ بهذا الانتخاب وادّعى لنفسهِ البطريركيّة استناداً الى وصية البطريرك المتوفى فذهب الى القسطنطينيّة وطلب من الجمع القسطنطيني ان تُعهد اليه البطريركية ففعلوا. ومذ ذاك اليوم قُسمت الطائفتان قسماً نهائياً فصار لكل منهما داعٍ اماً كيرلُس السادس فاثبتهُ حبر الاحبار سنة ١٧٢٩ ومنحهُ البابا بنادكتوس الرابع عشر درع الرئاسة سنة ١٧٣٧ فسعى على غاية امكانه في نشر الايمان الصحيح وقد عانى من المشقّات والمحن ما يكلّ عن وصفهِ قلم الّا انّ الله قرن بالنجح مساعيهُ وانمى رعيتهُ ولم تزل مذ ذاك اليوم حبّة الخردل تكبر وتقوى حتى صارت اليوم دوحةً باسقة الاغصان وارفة الظلال تسرّ مدينة الله. وكانت وفاة كيرلس السادس سنة ١٧٦٠ الّا انهُ تنزّل عن كرسيهِ قبل ذلك بسنة

امّا كيرلس السابع وهو آخر من عُرف بهذا الاسم قبل البطريرك الجديد فانهُ انتُخب في غاية كانون الاوّل من سنة ١٧٩٤ وكان اسمهُ كيرلُس سيّاج وكان مطراناً على حوران بيد انهُ لم يجلس على الكرسي البطريركي الّا سنتين ونصف سنة فتوفي في ٢٥ حزيران ١٧٩٦ ودُفن في عيتيت حيث توفي. قد وصفهُ صاحب مختصر تاريخ طائفة الروم الملكيين بكونهِ « سليم القلب لا غشّ فيهِ متواضعاً محبّاً للجميع »

فترى ممّا سبق انّ الذين دبّروا الكرسي الانطاكي باسم كيرلُس كلّهم ممّن امتازوا بالفضل واستقامة الايمان فشرّفوا الكرسي الذي تولّوا ادارتهُ وزيّنوا بيعة الله بفضائلهم. ولا شكّ ان البطريرك الجديد يزيد اسم كيرلُس رفعةً وجلالاً ويبقي على طروس التاريخ من اعمالهِ ذكراً طيّباً فانّ لنا في ماضيهِ احسن ضمانةٍ لمستقبله حقّق الله امانينا وحفظ شخصهُ الكريم سنين عديدة لخير الكنيسة وفخر الوطن

سقياً لطائفةٍ غدا نبراسها كيرلُس المفضال وهو الثامنُ
حبرٌ بهِ روض الكنيسة قد زها وجلوسهُ الميمون نجحٌ ضامنُ

٢) قد ظنّ لوكيان في كتاب الشرق المسيحي (٢ : ٧٧١) ان سارووفيم وكيرلس مختلفان وهو خطأ

نشيد

لجمعيَّة مار منصور دي پول

من تأليف الشاعر المجيد المرحوم نيقولا نقّاش

وقفنا على هذا النشيد الذي ألفهُ القانونيّ الشهير والكاتب النحرير المرحوم نيقولا نقّاش سنة ١٨٦٣ وهو لم يُطبع في ديوانهِ. فاحببنا نشرهُ في نسبة عيد شفيع الجمعيَّة وهو القديس الجليل مار منصور دي پول الواقع تذكارهُ في ١٩ تموز

١ بشرى لمجمع المؤمنينْ هذا هو الكنز الثمينْ
هذا هو الملجا الحصينْ لكلّ آتٍ مستجيرْ

اللازمة

يا مار منصور الشهيرْ اشفع لدى المولى القديرْ

دور

٢ نجمٌ بأفلاكِ السما فوق الكواكب قد سما
ولهُ الالهُ تبسَّما واقامهُ شمساً تُنيرْ

٣ فهو الرحوم الرامقُ والى المراحم تائقُ
وبفضل ربّكَ واثقُ وبصدق موعدهِ خبيرْ

٤ بحرٌ طمى في حِلمهِ حبرٌ سما في علمهِ
من أمنهِ من سِلمهِ تلقى القنوطَ غدا البشيرْ

٥ أنت العزاء عن الهمومْ انت الوديع لدى العمومْ
بل انت يوحنَّا الرحومْ ملجا المعنَّى والفقيرْ

٦ فوق المنابر مذ بدا قد خلتُ بحرًا مزبدا
ارشادهُ المُروي الصدا يلجُ المسامعَ كالنفيرْ

٧ فهو المعزّي للذليلْ وهو المداوي للعليلْ
يا قدوة الصبر الجميلْ بالسجن والشتم الغزيرْ

٨ جمع الارامل واليتيم في كنفهِ العالي مقيم
كالامّ يأتيهِ الفطيم مع كل صعلوكٍ حقيرْ

٩ يا سعد بيروت التي باهت بذي الجمعيَّةِ
اعضاؤها كالنخلةِ ورئيسها بدرٌ منيرْ

١٠ هيَّا اقتفوا آثارهُ هيَّا اقطفوا اثمارهُ
واستنشقوا ازهارهُ من روضهِ الزاهي النضيرْ

١١ هيَّا لقد سدتم على اقرانكم بين الملا
وفخاركم لقد اعتلى وبهِ ارتضى الربُّ الكبيرْ

١٢ صدقاتكم كنزٌ عظيم بخزائن المولى الرحيم
ولكم بها مجدٌ عظيم في خدرهِ السامي المنيرْ

١٣ اتعابكم تاجٌ ثمين بيديهِ ربِّ العالمين
فاستبشروا يا عابدين وتذكروا قول البشيرْ

١٤ انتم بني جمعيَّتي أَلعارفين سريرتي
وبيَ اقتدوا في سيرتي وانا لكم نعم النصيرْ

اصل رهبانية الكَرْمَل (١

ومآثرها للعذراء مثال القداسة الاكمل

لحضرة الكاتب الفاضل الاب انستاس الكرملي

تمهيد

لا يغرب على متصفح الامور الدينيَّة الكاثوليكيَّة ان الشرق معدن عبادة مريم العذراء عليها اشرف السلام وفي الشرق أُقيم اول معبد على اسمها الكريم ومن الشرق

١) قد ضبط لغويُّو العرب لفظة الكرمل على وزن زِبْرِج اي بكسر الاول والثالث وسكون الثاني ونصوصهم في ذلك واضحة نكتفي منها بما قالهُ ياقوت في معجمهِ وهذه عبارتهُ: «كِرْمِلُ بالكسر ثم السكون وكسر الميم ولامٌ هو حصن على الجبل المشرف على حيفا بسواحل بحر الشام وكان

تنجّرت اشعّة الحبل بها بلا دنس اصلي. هذا هو الرأي المشهور في هذه ثلاثة الامور امّا كيفيّة انتشارها وعلى يد مَن كان هـذا الانتشار وفي اي عصر ابتُدئ به فيكاد الاغلب يجهلهُ. وعليهِ فيحقّ لقراء المشرق الذين تعوَّدوا التكحُّل باثمد حقائقهِ ان يقفوا على اوائل هذا التعبد ودقائقهِ

١ قدم التعبُّد للعذراء

اول كلام جاء بخصوص العذراء كلام مُجمل رمزي ورد في التنزيل العزيز في سفر الخلق بعد سقطة آدم في الخطيئة. وهذا نصّهُ: أَجعل عداوة بينكِ (اي بين الحية وهي صورة الشيطان) وبين المرأة وبين نسلكِ ونسلها فهو يسحق رأسكِ وانتِ ترصدين عقبهُ (سفر التكوين ٣: ١٥) ومعنى هذا الكلام انهُ عزَّ وجلَّ جعل عداوة بين الشيطان والانسان وبين نسل ذاك وهذا وان يسوع المخلص المولود من المرأة اي مريم العذراء يسحق راس اللعين بنيابتهِ اياهُ مائتاً على خشبة الصليب. هـذا هو راي جمهور الآباء القديسين. الَّا انك لا ترى من هذا النص شيئاً ينوّه بالعذراء تنويهاً جليّاً الى ان جاء ذاك النبي العظيم ايليا الحيّ فابرز عبادة العذراء من حيّز الرمز والابهام الى عالم الصراحة والتبيان وذلك ان الخضر(١) كان يُقيم على جبل الكرمل وكان قد جمع تحت امرهِ طائفة من التلامذة يتخرجون عليهِ في الطريقة النسكية(٢). وتلك الطائفة هي جرثومة رهبانية الكرمل والمراد بالطريقة النسكية يومئذٍ ان النبيَّ التشبيَّ واصحابهُ كانوا قد انقطعوا اليهِ تعالى بالصلاة والتبتُّل على ما نصَّ عليهِ آباء الكنيسة كالقديس باسيليوس والقديس غريغوريوس النصيصي والقديس هيرونيموس والقديس افرام والقديس اثناسيوس واضرابهم من الائمة المعدودين. وفي ذات يوم «صعد ايليا الى راس الكرمل وخرَّ الى الارض وجعل وجههُ بين ركبتيهِ وقال لغلامهِ: اصعد وتطلّع نحو البحر. فصعد وتطلّع وقال: ما ارى شيئاً. فقال لهُ: ارجع سبع مرَّات. فلمَّا كان في السابعة قال: ها سحابة صغيرة

قديماً في الاسلام يُعرف بمسجد سعد الدولة». اه الَّا اننا نفضّل على ذلك وزانهُ على جَعْفَر اي بفتحتين عوض الكسرتين لان لفظهُ هذا يقرب من لفظهِ في أصله العبريّ. وهو ايضاً اللفظ المشهور على السنة الناس والوارد في الترجمة اليسوعية بهذا الضبط. وانك لا تجهل بان الاجود في ضبط الاعلام الرجوع الى اصلها والتقرُّب منهُ

١) الخضر من اسماء ايليا النبيّ. والبعض يطلقهُ على الخوخ والبعض يريدون به القديس جرجس الشهيد ٢) راجع سفر الملوك الرابع الفصل الثاني

قدر راحة رجُل طالعة من البحر » (بجرفه عن ٣ سفر الملوك ١٨ : ٤٢—٤٤) . فمن تُرى ذاك الشيء (اول ما ينشأ من السحاب) . قلتُ : إنْ هو الّا صورة مريم على ما احقَّهُ المفسّرون بل وصورة الحبل بها بلا دنس اصلي لانهُ على حدّ ما ينشأ السحاب ويرتفع من عباب البحر بدون ان يتخذ ثقلهُ وأجاجهُ كذلك نشأت العذراء من صلب آدم المفسود بالخطيئة والمثقّل بها بدون ان ينالها من ذلك شيء البتّة

هذا هو السر الذي أُوحي بهِ الى النبيّ التَّشبيّ وقد كشفهُ لخليفتهِ وخريجهِ ورئيس ابناء الانبياء بعدهُ النبي أليشع ومنهُ فشا الخبر الى كافّة السلالة النبويَّة الكرملية التي شيَّد النبي ايليا قواعدها ووطَّد وطائدها وقوّى سواعدها بما ابقاها الى ايام المسيح متخذةً اسماء مختلفة حسب ظروف الزمان ومقتضياتهِ (١ حفظاً لتلك العقيدة التي وصلت اليهم من مؤسسهم الاعظم

اجل اننا لا نجهل ان جماعة من الكتبة انكروا على الكرمليين تقليدهم هذا واصلهم من السلالة النبويَّة المذكورة في التنزيل العزيز الّا ان الكنيسة قد اثبتت هذا التقليد الوسيم واقرّتهُ بوجهٍ لا يحتمل بعدهُ مكابرة ولا مشاجرة وذلك ان البابا بندكتس الثالث عشر امر في ٢٦ حزيران سنة ١٧٢٥ باقامة تمثال للقديس ايليا واوقفهُ في صدر التماثيل المنصوبة لاكرام مؤسسي الرهبانيَّات في كنيسة القديس بطرس في رومة العظمى وقد كتب عند رجلهِ ما معناهُ : « اقامتهُ رهبانية الكرمل باسرها لمؤسسها القديس ايليا النبي » . وهذا هو نصهُ اللاتيني :

---

١) بعد ان دعاهم الكتاب الكريم غير مرة أبناء الانبياء في سفر الملوك سماهم ارمياء « ريكابيين » (ارميا ٣ : ٢ , ٢ , ٥ , ١٨) وذكرهم صاحب الزبور باسم « حَسيديم » او « حَسيدُيون » فعربتها الترجمة اليسوعية « بالاصفياء » غير انها ذكرتها بصورتها العبرية في سفر المكابيين الاول (٢ : ٤٢ ثم ٧ : ١٣) وفي سفر المكابيين الثاني (١٤ : ٦) ومعناها الرحماء والاتقياء والصُلَّاح . واطلق عليهم يوسيفوس وفيلون وبلينيوس والقديس ابيفانس في مواطن شتَّى من تآليفهم اسم « الأسَّانيين » اي الآساة على راي مشهور . وعرفهم العرب باسم المتسلة او المتسلين او النُسَّاك (راجع مجاني الادب ١ : ٢٩٢ ثم ٧ : ١٧٥) وكان عددهم في عهد المسيح اربعة آلاف نا سك على ما نقلهُ فيلون وكان موطنهم عين جدي والكرمل وما جاورهُ وحوالي بحيرة لوط وجوار اورشليم وكانوا يتخذون البسة بيضاء ويكثرون من الاغتسال ويتنحون عن الزواج ولا يتخذون عبيداً ويحيون لياليهم بالتهجد والتواشيح (قربات الليل)

Universus ordo Carmelitarum fundatori suo Sancto Eliæ prophetæ erexit.

هذا هو أصل عبادة العذراء في الشرق العزيز وهو يرتقي الى المائة العاشرة قبل المسيح والفضل في ذلك عائد كما رأيت الى النبي ايليا العظيم. وهذا هو اصل اكرام حبل العذراء بلا دنس اصلي. ذلك هو التقليد الذي تلقيناه عن السلف اتابهم الله ونحافظ عليه محافظة دونها محافظتنا على حياتنا

وبعد ان شرّفت العذراء هذا العالم بولادتها الزكية وخفقت على المعمور راية الدعة والسكينة والبشارة العظمى ببزوغ اشعّة وجهها الكريم كان سلفُ الكرمليين اول من عظّمها واكرمها وبالغ في حفاوتها. ولذلك كثيرًا ما كانت تختلف الى جبل الكرمل مع يسوع والقديس يوسف فتفتنهم بكلامها عن الله وتخلب عقولهم بما أُوتِيَ على شفتيها من تدفّق العذوبة والرقّة والنعمة (المزامير ٤٤: ٣). ولذلك كان اجداد الكرمليين اول من آمن ايضًا بالاله يسوع بعد الرسل والتلامذة واول من اقام للعذراء معبدًا بعد انتقالها الى السماء بالنفس والجسد. هذا والكنيسة المقدسة قد اثبتت ايضًا هذا التواتر واجلّتهُ واحلّتهُ محلًّا رفيعًا. ومصداقًا لذلك أُورد لك بالحرف المعرَّب ما جاء في كتاب الفرض الروماني في اليوم ١٦ من شهر تموز وهذا نصّهُ: «ان كثيرين من الناس الذين كانوا اقتفوا آثار النبيَّين ايليا وأليشع وكان قد اعدَّهم القديس يوحنا المعمدان لمجيء المسيح لمّا أُطلعوا بحقيقة الوقائع اهتدوا الى الايمان عند سماعهم الرسل ورؤيتهم الخوارق. ولما كانوا قد وقفوا نفوسهم لاكرام العذراء الطوباوية بنوع خصوصي شرّفتهم البتول مرارًا عديدة بتجاذب اطراف الكلام معهم واقاموا لها معبدًا على جبل الكرمل في الموطن الذي رأى ايليا تلك السحابة التي هي صورة العذراء المبجّلة. وكان هؤلاء يجتمعون كل يوم في ذلك المعبد الجديد ويكرمون فيه العذراء بالسُنن الدينيَّة والادعية والمديح اذ يعتبرونها الشفيعة الوحيدة لرهبانيتهم ولذلك دُعوا بأخوة الطوباوية مريم العذراء سيدة الكرمل (١. ولم يثبت لهم الاحبار العظماء هذا

١) ان تلقيب العذراء بسيدة الكرمل يرتقي الى صدر النصرانية وذلك ان نُسَّاك هذا الجبل كانوا قد وضعوا في المعبد الذي ألمنا اليه صورة مريم ماسكة بين ذراعيها يسوع الطفل وهذه الصورة اشتهرت فيما بعدُ بعجائبها العديدة ونُقلت الى نابلي لاسباب لا محلّ لذكرها هنا

اللقب فقط بل جادوا بالنفرانات على كلّ من يلقبهم به » . اه

٣ العيدان الكبيران عند الكرمليين

هذا وأن كان الكرمليون يكرّمون العذراء على مدار السنة إلاّ أنهم كانوا قد اقاموا يوماً يطلقون فيهِ عنان عبادتهم لها ويزيدون في اكرامها وكانوا قد وسموهُ بسمة الافراح. ألا وهو اليوم التاسع من كانون الاول (وهو الذي جعلوه في اليوم الثامن منهُ عند اتخاذهم الطقس الروماني والتنازل عن طقسهم الخصوصي الذي كان يضاهي كل المضاهاة طقس الكنيسة الاورشليميّة) الذي ارصدوهُ لاكرام الحبل بها بلا دنس اصلي ولكون العذراء شفيعة الرهبانية. ثم ان هذا العيد انتقل من اديرة الكرمليين الى ما حواليها من الكنائس. وكان



تمثال سيدة الكرمل العجائبي وجبل الكرمل وديراهُ

اوّل من انشأ رتبتهُ خارجاً عن اديرة هؤلاء الرهبان القديس اندراوس الاقريطشي المتوفى سنة ٧١٢. وهذا العيد ادخلتهُ الكنيسة الرومانية بين عداد اعيادها في المائة التاسعة وجعلتهُ في اليوم الثامن من كانون الاول مناسبةً ليوم ولادتها في ٨ ايلول (راجع المشرق ١:٤٧) . وبقي الكرمليون على جعل هذا العيد من اعظم اعيادهم السنويّة كما تشهد بذلك تواريخهم في جميع القرون الى المائة الثالثة عشرة. اما سبب اتخاذهم عيداً ثانياً جعلوهُ في اليوم ١٦ من شهر تموز فهو هذا :

في سنة ١٢٤٥ كان رئيس الكرمليين العام سمعان استوك وفي مدة رئاستهِ كان

قد اسعر بعض المُفترضين نار اضطهاد عظيم نكايةً في جميع ابناء الرهبانية وكادت تحقهم عن بكرة ابيهم لولا ان هذا القديس تداركها بسامي قداسته وذلك ان سمعان كان يبتهل الى الله واثقاً به كل الثقة بانهُ ينشلهُ من جميع المحن وكان يُصلي ايضاً الى العذراء طالباً منها ان تجود على الذين تسمَّوا «باخوتها» بآيةٍ تُبيّن بها انها «أُمهم» ايضاً وتُبدّد عنهم مدلهمات الشدائد وكان قد نظم لهذه الغاية نشيداً لاتينياً أودعهُ ارقّ عواطفهِ واحرَّ لواعج فؤادهِ وهذا معناهُ:

«يا زهرة الكرمل يا ايتها الكرمة الزهرة يا بهاء السماء يا ايتها البتول الوالدة الوحيدة يا ايتها الامُّ الوديعة انتِ التي لم تعرفي رجلاً جودي يا نجمة البحر بامتيازاتٍ على الكرمليين»·.وبقي مثابراً على هذا التوسّل والتخشّع والتخضّع حتى نال بغيتهُ وذلك ان هذا القديس كان في اليوم ١٦ من شهر تموز سنة ١٢٥١ قد سبق تباشير الصباح على مألوف عادتهِ للتفرُّغ للصلاة فخُطف بالنفس انخطافاً عميقاً رأى فيه ان السماء قد انفتحت وظهرت مريم محتاطة بزُمر الملائكة وقد احدق بها نورٌ سماوي وبين ذراعيها يسوع الطفل···وكان بيدها ثوب الرهبانية او الصدار

فالتفتت نحو عبدها الامين وقالت لهُ:«خذ يا ولدي العزيز هذا الثوب ثوب رهبانيتك بمنزلة علامةٍ مميّزة لاخوتي وآية الانعام الذي نلتهُ لك ولاولاد الكرمل فكلُّ من يموت لابساً هذا الثوب لا يتألم في نيران جهنَّم فهو علامة خلاص ووقاية في المهالك ورهن سلام وحماية دائمة الى نهاية الدهور»·.هذا ولمَّا رجع القديس الى نفسهِ شعر بدافعٍ يدفعهُ الى نشر هذا الانعام الجليل حبّاً بخلاص النفوس وكتب الى جميع اديرة رهبانيتهِ كتاباً يروي فيه تفاصيل الواقعة بدقائقها ويعدهم بانفراج الازمة داعياً الجميع الى الشكر لهذه العذراء الوالدة وحاثّاً اياهم الى ان يخلّدوا هذا الانعام الوسيم في الرهبانية كلّها وامر لهذه الغاية جميع ابنائهِ ان يلبسوا هذا الثوب (الصدار) بدون ان ينزعوهُ عنهم وان لا يعتبروه من الآن وصاعداً كما في ما مضى من الزمان بل بمنزلة ثوبٍ مقدَّس.ومنذ ذاك الحين نشأت اخويَّة ثوب العذراء وقد اغناها الاحبار العظاء بغفرانات وانعامات عزيزة جليلة·ثم اراد القديس سمعان ان يُقام في كل سنة عيد في اليوم السادس عشر من شهر تموز يُحتفل فيه كل الاحتفال بذكر «مريم العذراء سيدة الكرمل»

واخذ من ثمَّ الكرمليون يقيمون هذا العيد كل سنة في جميع كنائس الرهبانية

الى اواخر القرن السادس عشر فامر الحبر الاعظم الكردينال بلرمين اليسوعي (Bellarmin) ان يدقق النظر في قراءات النومة الثالثة من صلوات الليل التي يتلوها الكرمليون في فرضهم. ومن بعد ان فحصها هذا الكردينال واجازها ووقع عليها اثبتها مجمع الطقوس المقدَّس في ٢٠ حزيران سنة ١٦٠٩ وذيَّلها الكردينال پينلّي (Pinelli) رئيس المجمع يومئذٍ باسمهِ وذلك من قبل البابا بولس الخامس الذي امر فعمَّم هذا العيد في الكنيسة كلها

٣ اعاجيب ثوب العذراء

امَّا الآيات والعجائب التي اجترحها الله بواسطة هذا الثوب وبشفاعة مريم امهِ فتكاد لا تُحصى بل لا تمضي سنةٌ من السنين الَّا وقد حدث من هذا القبيل ما يقوم منهُ كتابٌ برأسهِ. إلَّا اننا نجتزئ بذكر اعجوبتين لا غير واوكدهما بيمين مغلَّظة عند الحاجة وان كنتُ لا اطلق على كلّ منهما اسم الاعجوبة الَّا طبقًا لبراءة أُربانس الثامن اي اني لا أُصرّح بكونهما خارقتين للطبيعة الَّا اذا نطقت بهِ الكنيسة. فاقول:

الاعجوبة الاولى وقعت لهذا الحقير كاتب هذه السُطور وذلك اني اذ كنتُ صبيًّا قد اتَّبعتُ العادة الجارية في دار السلام من تعلُّم السباحة في دجلة في ايام القيظ. وقد علمتَ في المشرق (٤ : ١٠١٩) ان الطريقة المألوفة لتعلُّم السباحة في اقطار العراق ان يُشد على الحقوين كَرَبٌ او كربان او ثلاثة او غير ذلك لكي يستطيع المتعلّم ان يعوم بها. وهي كما لا يعزب عليك بمنزلة الفلّين الذي يتَّخذه الافرنج في بلادهم لمثل هذه الغاية. حتى اذا أتقن الرجل هذا الفنّ وتمكَّن من ان يعوم السابح من نفسهِ أَلقى عنهُ كَرَبَ الكرَبِ. وهذه هي علامة ختم السباحة. وقد يقع للمتعلمين ان الحبل الذي يُربط بهِ الكرَب ينقطع في اثناء السباحة لكثرة ما يُجزَق ويُوتَّر فيغرق عند ذلك صاحبهُ اذا لم يكن بجانبهِ مُنقذٌ يُنقذهُ. وعليهِ فبينما كنتُ ذات يومٍ اتعلَّم السباحة على هذه الطريقة وكان اخوتي جالسين على شاطئ دجلة ينظرون اليَّ ليرشدوني الى كيفية القاء الذراع وتحريك الساق في السباحة وكنتُ قد قطعتُ مسافةً عظيمة من النهر وهم يشجعونني بالفاظ الحماسة انقطع بي الحبل فجأةً فصرختُ باخوتي الذين كنتُ قد بعدتُ عنهم فلم يستطيعوا ان يُغيثوني. وبعد ان تيقَّنتُ غرقي وتثبَّت عجز اخوتي عن انقاذي استغثتُ بالعذراء مريم طرحتُ نفسي بيديها شاعرًا بدنوّ الاجل. وبينما كنتُ

اسمع اخوتي يبكونني ويندبونني خارت قواي لكثرة ما عالجتُ من طُرق النجاة والنفس عزيزة غصتُ في الماء بعد ان ابرزت اشارات اليأس والقنوط واستسلمتُ لامره تعالى. غير انهُ لم يمضِ زمانٌ طويلٌ الّا ورأيتني عند حافة النهر وقد وصلتُ اليها من تحت الماء من دون ان يشاهدني اخوتي. فكان عجبهم لذلك عُجابًا وقالوا لي: ان العذراء هي التي انقذتك من هذا الغرق بواسطة الثوب الذي انت لابسهُ. وبالحقيقة ان هذا الثوب كان على صدري عاملًا بما كانت تُوصينا به والدتُنا المبرورة رحمها الله اذ كانت تشدّد علينا بلبس الثوب وتلزمنا بان لا نخلو منهُ البتة ولا طَرفة عين. واقرارًا بهذا الفضل للعذراء مريم اوقفتُ نفسي لخدمتها وتجندتُ في الجندية المسمَّاة باسمها وعليهِ فانني اكرّر الشكر لهذه البتول الطاهرة القديرة على رؤوس الملا واحضّ الجميع ان يتوشحوا بهذا الثوب الكريم اذ لا ضرر من لُبسهِ

امّا الاعجوبة الثانية فهي انَّ خالي سليمان اوغسطين جبران رحمهُ الله كان من مهرة الصُنّاع الذين يُزاولون إصلاح الاسلحة والبواريد وكان قد اتاهُ يومًا اعرابيّ وبيدهِ بندقيّة محشوة رصاصة كبيرة الحجم. ولمَّا كان هذا الرجل من أجلاف اهل البادية وقد وقع خللٌ طفيف في بارودتهِ ولم يستطع بنفسهِ ان يُصلحهُ جاء خالي وقال لهُ: «انظر حرسك الله ما في هذه البندقيَّة وأصلحهُ اصلحك الله». غير ان الاعرابي سها عن ان يقول لهُ ان البارودة محشوة فاخذ الاستاذ يُقلّبها ذات اليمين وذات الشمال تارةً يقلّبها ظهرًا لبطنٍ وطورًا يجعل أسفلها اعلاها وأخرى ينظر الى خشبتها وآونةً يفحص انبوبتها ليتثبَّت موضع الخلل منها وبينما هو على هذه الحالة وهو يعالج زناد البارودة وقد حوَّل الانبوبة الى صدره أطلق الزناد (وهو لا يعلم انها محشوة) فاندفعت الرصاصة اسرع من لمح البصر وضربت صدره فوقع على الارض صريعًا. فأغلق مَن في السوق دكاكينهم وحوانيتهم وجاؤوا خالي ظانّين انهُ ميتٌ لا محالة. لكن لمَّا نزعوا عنهُ ثيابهُ رأوا ويا لها من رؤية عجيبة مذهلة انَّ الرصاصة قد تعلّقت بثوب العذراء كما لو كان احدٌ قد الصقها بمادة غرويَّة قويَّة. ولمَّا فحصوا ثيابهُ تحقّقوا ان قباءهُ وصُدرتهُ وثوبهُ قد ثقبتها الرصاصة ثقبًا على قدر حجمها الّا انَّها لم تخرق ثوب العذراء وانَّما الخال وقع صريعًا على الارض لشدَّة الصدمة التي صدمتهُ في صدره

وهذه الآيةُ أثّرت ايَّ تأثير في البلد واشتهرت اي اشتهار حتى انَّ كثيرين من

المتظاهرين بالكفر والزندقة وقلّة الدين ادعاء في نفوسهم انَّهم من اهل هذا العصر الجديد الذي يفتخر بالتخلُّص من ربقة الدين ويهزأ بالسنن الدينيَّة والطاعات والقربات لبسوا هذا الثوب بعد ان تحقَّقوا بنفوسهم ورأوا بابصارهم الرصاصة معلقة بالثوب لانَّها بقيت اياماً عديدة على هذه الحالة وقد حفظها رئيس الرسالة سابقًا في موضع خصوصي

هذا ولو اردتُ ان اورد جميع الآيات والاعاجيب والخوارق التي وقعت في البلاد بواسطة هذا الثوب لقلتُ قول القديس يوحنا البشير ناقلًا الكلام عن مريم: «واشياء أُخر كثيرة صنعتها مريم العذراء لو انَّها كُتبت واحدةً واحدةً لما ظننتُ ان العالم نفسهُ يسع الصحف المكتوبة» «فمن استطاع ان يفهم فليفهم» والسلام على من رأى الحقَّ فاهتدى

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

٢ سُكنى لبنان في قديم الزمان

انَّ لبنان من احفل ولايات الدولة العليَّة بالسكَّان فان معدَّل أهليهِ يبلغ ٦١ نفسًا في كل كيلو متر مربَّع. وهو لعمري عددٌ بليغ لا تتجاوزه الَّا ولاية دار السلطنة وجزيرة ساموس. فانَّ معدَّل قاطني الولاية الاولى هو ١٦٢ شخصًا في كل كيلو متر مربَّع امَّا ساموس فاهلها ١١٣ نفسًا في الكيلو متر. الَّا انَّهُ لا يجوز المقابلة بينهما وبين لبنان لانَّ ولاية دار السعادة تشمل الاستانة العليَّة وهي كما لا يخفى من حواضر المدن واكثرها سكنًا فيزداد بعدد اهلها معدَّل اهل الولاية التي هي داخلة فيها. وكذلك ساموس فانَّها جزيرة كثيرة الخيرات حسنة التربة ليس فيها جبال عالية فلا عجب اذا تقاطر اليها الناس ليستوطنوها. امَّا لبنان فعبارة عن سلسلة جبال عالية كثيرة الصخور قليلة الخصب ومع ذلك ترى مصانعهُ وقراهُ متقاربة كثيرة الاهلين بحيث يصحُّ القول انهُ لا يوجد في قطر آخر جبل يربو عدد سكَّانهِ على سكَّان لبنان

على انَّ الامر لم يكن كذلك في سالف القرون فانَّ لبنان طالما كان قفرًا مقفرًا لا يأوي اليهِ الَّا كواسر الوحوش ولبيان ذلك ها نحن نبحث في هذا الشأن لنرى كيف احتلَّ لبنانَ سكَّانهُ اوَّلًا قبل عهد النصرانيَّة ثم ثانيًا في زمن الرومان واخيرًا منذ دخول الموارنة فيهِ وهي اطوار ثلاثة توافق احوال هذا الجبل الثلاث من حيث السكن فنمت الاهلون الى ان بلغ عددهم الى ما نراه اليوم

*

اعلم انهُ ممَّا لا يختلف فيهِ اثنان ان جبل لبنان كان في الاعصار الغابرة قليل السكن ولا غرو فانَّ وَضع هذا الجبل وهيئتهُ واحوالهُ الطبيعيَّة والجغرافيَّة ممَّا يمنع عن توارد السكَّان اليهِ. فانَّ مشارفهُ العليا صرودٌ لا يمكن سكناها لبردها. ليس فقط في فصل الشتاء لكن ايضًا في بقيَّة السنة. وهي المنطقة التي تعلو فوق ١٨٠٠ متر من سطح البحر. فان القسم الواقع فوق هذا الخط يُعرف بالجرود لانَّ ارضهُ جرداء كثيرة الصخور لا ينبت فيها الزرع الَّا ضاويًا وبعد عناء ومشقَّة. وتزيد على ذلك انَّ لبنان كلَّهُ لم يقم قطُّ بمعاش اهلهِ لاسيَّما في عهدنا مع تزاحم السكَّان فيهِ. وليس هذا ناجمًا عن تغافل اللبنانيين وتكاسلهم لانَّ كل الكتبة لسان واحد على همَّة قطان هذا الجبل وملازمتهم العمل ومواظبتهم على الفلاحة. وفي جانب آخر ليس للبنان مناجم معدنيَّة يمكنهم الارتزاق بمرافقها تعويضًا عمَّا ينقصهم من الغلَّات. وكذلك ترى اسباب التجارة قليلة في لبنان لا سيما لانَّ الطرق التجاريَّة لا تخترقهُ فتنثني عنهُ قوافل التاجرين. بل الاحرى ان يُقال انَّ جبالهُ كسدّ قائم في وجه الامم الواقعة على عِطفَيه فترى بينهما فرقًا كبيرًا من حيث الهواء والنبات وكلاهما يختلف في وجهي لبنان. واذا استقريت التاريخ وجدت سياسة شعوبهما متباينة يعيش كلُّ شعب على حدةٍ معتزلًا عن الآخر مع كونهم ينتمون كلُّهم الى عنصر واحد

وممَّا يشهد على صعوبة السكنى في لبنان انك لا تجد في خلال جبالهِ سوى مسالك حرجة وشعاب ضيّقة لا تُقطع الَّا بالجهد الجهيد. امَّا السُّبل التجاريَّة اللاحبة التي كانت القوافل تسلكها فانَّها كانت تمرُّ شماليّ لبنان وجنوبيَّهُ فتعطف في وادي النهر الكبير او تُجاري سيرَ نهر الليطانيّ والطريق الاولى هي التي اغنت طرابلس في الزمن القديم امَّا الثانية فكانت مجلبةً لثروة صور العظمى. وبعكس ذلك لم تُصب بيروت

مقاماً كبيراً في التجارة اذ كان يفصل بينها وبين دمشق والبلاد الداخليَّة سلسلتان من الجبال المرتفعة الى ان فُتحت طريق الشام قبل سنين قليلة ثمَّ أُنشئت السكَّة الحديديَّة فانتصر الانسان بكدّ جبينهِ على ما اقامتهُ الطبيعة في وجههِ من العراقيل والعوائق

هذا واذا تصفَّحنا اقدم ما سطَّرهُ المؤرخون عن لبنان وجدناهم يصفون هذا الجبل مغشَّى بنابات كثيفة . ويوافق هذا الوصف ما ورد في الاسفار المقدَّسة واقدم الآثار الاشوريَّة . وقد دامت هذه الحالة قروناً متواترة كما يشهد على ذلك مؤرخو اليونان والرومان الذين اثبتنا نصوصهم مراراً في المشرق في مطاوي كلامنا عن الارز (٤ : ٩٣٠) وفي المقابلة بين لبنان وجبال الالب (١ : ٧٢١) . ومن عجيب الامور انَّ هؤلاء الكتبة لا يذكرون البتَّة شيئاً من قرى لبنان وانَّما يعدّون فقط المدن الفينيقيَّة الواقعة على ساحل البحر . نعم انَّ بعض المستشرقين استشفُّوا من وراء اسم « اميا » الوارد في مراسلات تلّ العمارنة (المشرق ٣ : ٧٨٩) قريةَ « اميون » الَّا انَّ الامر ليس بمقرَّر فضلًا عن ان اميون واقعة في سهل منبسط طيّب التربة قليل الارتفاع وليست هي في وسط لبنان

واوَّل ما ورد من اسماء الدساكر اللبنانيَّة في اساطير المؤرخين انَّما جاء في جغرافيَّة اسطرابون اعني قبل تاريخ الميلاد بزمن قليل بعد ان فتح بُمبيوس بلاد الشام . ألا وهي اسماء ثلاثة حصون او قل بالاحرى ثلاثة عشوش للُّصوص تدعى جيغرتا وسنّان وبرومة (المشرق ٢ : ٥٠٧) ومواقع اخرى مثلها اكثرها قريب من البحر . وممَّا يستدلُّ من مجرَّد ذكر هذه الحصون انَّ سكنى الجبل كانت محفوفةً بالاخطار لا يتوطَّنهُ الَّا قليل من السكَّان . وسنعود الى ذكر هؤلاء اللصوص عند كلامنا عن الايتوريين وهم قوم من عرب حوران امتزجوا بالعنصر اللبنانيّ

امَّا الكتابات القديمة فهي عزيزة جدًّا في لبنان وكلُّ ما وجد منها لا يتجاوز اوائل التأريخ المسيحيّ وقد اكتُشف معظمُها قريباً من الساحل ليس بعيدًا من جُبيل وبيروت وهذا دليل واضح على قلَّة سكَّان لبنان قبل المسيح . ولنا ايضاً على قولنا برهان آخر في ما نراه من الاخربة القديمة في لبنان فانَّك قلَّما تجد بينها من الآثار السابقة لعهد النصرانيَّة وكذلك النقوش المحفورة على الصخور فهي كلُّها من عهد الرومان اللهمَّ الَّا نقوش وادي بريسا قرب الهرمل (وسيأتي ذكرها)

ومع كلّ هذه الشواهد انَّنا نرجح كون لبنان لم يخلُ من بعض المراكز الاهليَّة

كان موقعها في وسط الجبل اتّخذها الاقدمون في بعض الوديان والبطائح الحسنة التربة الكثيرة المياه السهلة الزراعة (١. وكذلك كنت ترى في خلال الغابات منازل للحطّابين كانوا يعدّون فيها الخشب لاسيّما الارز الذي كان القدماء يقبلون عليه لتجهيز مبانيهم ومنهُ كان الفينيقيّون يعمّرون سفنهم واساطيلهم (٢. ولعلّ بعض القرى التي تُعدّ من اقدم دساكر لبنان كاهدن وبشرّاي ابتدأت على هذه الصورة فكانت في اوّل امرها كمصانع لتحطيب الارز وغيره من الاشجار الجبليّة العظمى. وقد اوردنا في ما مرّ كتابات يونانيّة وُجدت في اهدن ترتقي الى التاريخ المسيحي ومنها يجوز القول بانّ القرية سبقت عهد النصرانيّة. امّا بشرّاي فانّ اشتقاق اسمها على رأي البعض من اسم الالهة عشتار دليل كافٍ على قدمها

ومن القرى التي ترجح قدمها الهرمل الواقعة على منعطف لبنان الشرقيّ. ولا غرو فانّ موقعها في بطحاء مخصبة غزيرة المياه ممّا يستدعي الى استعمارها وبقربها وُجدت صفيحتان فيهما كتابات اشوريّة قديمة نشير اليها قريبًا

ومن الامكنة التي ترلها الناس في غابر الاعصار بعض المقامات التي اتخذها الاهلون كنائس دينيّة منها اليمّونة وقرا ودير القلعة ومشنقة. فانّ هذه المحلّات وان لم يرد ذكرها قبل ايّام الرومان فانّ اصلها فينيقيّ محض لا محالة

وعلى هذه الصورة اضحى لبنان شيئًا فشيئًا معدًّا للسكن. فانّ الاهلين ضربوا اطنابهم اوّلًا قريبًا من المدن الساحليّة وفوق رُبى لا يتجاوز علوُّها من ٤٠٠ متر الى الف متر حيث الهواء لطيف والرزق مضمون. ثمّ اخذ لبنان يُجرّد من احراجه الكثيفة الدغلة لمتاجرة الاهلين بخشبها فصار الناس يفلحون الاراضي التي نُزعت عنها الادغال ويشيّدون المباني للسكن وكان ذوو الثروة من اهل الساحل يتوقّلون في فصل القيظ مشارف لبنان ترويحًا للنفس وطلبًا للراحة بعد ما تجشّموه من الاسفار الشاقّة

*

فاخذ من ثمّ القطين يتوغّلون في لبنان فازداد عددهم ونموا خصوصًا بعد الفتح الرومانيّ. وقد اسلفنا فوصفنا ما نجم عن دخول الرومان في سوريّة من المنافع الجمّة

١) وممّا زُرع فيها الجفنة فان هوشع النبيّ ذكر في كتابه (١٤: ٨) خمر لبنان واطراهُ
٢) راجع ما سبق لنا في المشرق في هذا الخصوص

(المشرق ٢ : ٢١٤ و ٣١٤ و ٤٣٧) فانَّ تملُّكهم رفع بها الى اعلى مقامات العمران والتقدُّم. فهم الذين قضُّوا اجنحة الفتن ومدُّوا أَرْوقة السلام فوق كل الاهلين على اختلاف اجناسهم. ومن اعمالهم المشكورة انهم استأصلوا شأفة اللصوص الذين كانوا تحصَّنوا في لبنان فدكُّوا معاقلهم واعادوا الأَمن الى السكَّان (المشرق ٥ : ١٠٩). فراجت اسواق التجارة واضحت المدن الساحليَّة محطًّا للقوافل ومركزًا للمعاملات لاسيَّما جبيل وبيروت وصور فانتشرت منها هذه الحركة الى ضواحي لبنان المجاورة لها. وممَّا زاد في خصب الجبل ما ابتناهُ الرومان من القنيّ لجلب مياه لبنان من عيونها فكان ذلك من ادعى الوسائل لنشر الحضارة وتلطيف الهواء في مدن الساحل. ومنها ايضًا السكك الرومانيَّة التي كانت تستدير سائرةً حول لبنان. واحدى هذه السكك كانت تخترق الجبل في عرضهِ سائرةً الى جنوب العاقورة ومنها الى بعلبك (المشرق ٢ : ٣١٤). ولمَّا كان لبنان لم يزل بعدُ مزدانًا بغاباتهِ سعى الرومان باستثمارها ووضعوا لذلك قوانين مملوءَة حكمة اشرنا اليها سابقًا

ولا عجب اذا رأينا لبنان في ايَّام الدولة الرومانيَّة تغيَّرت احوالهُ وترقَّت شؤونهُ والى ذلك العهد تنتمي عدَّة كتابات منها يُستدلُّ على وجود قرى وضياع او بالاحرى مزارع ودساكر. ومن غريب امر هذه الكتابات انها لا تحتوي عَلَمًا لمكان واقع في قلب لبنان. ومجمل ما تتضمَّنهُ اعلامٌ شخصيَّة فقط

وفي ذلك العهد استبدل الرومان المعابد الفينيقيَّة الصغرى بهياكل فخيمة يدبّرها عدد غفير من السَّدَنة وارباب الدين فكان يتقاطر اليها الزوَّار زرافاتٍ ومنهم من كانوا يختارون تلك الامكنة لسكناهم فأُنشئت عدَّة قرًى حول هذه المقامات الدينيَّة. وكان لهذه الهياكل ارزاقها وغاباتها المقدَّسة واوقافها وكرومها. ومعلومٌ انَّهُ لا نُدحة للقيام بكل هذه الاملاك من عملة وفلاَّحين يستثمرونها(١). فلا غرو ان ضيعًا كثيرة ظهرت على هذه الطريقة الى حيز الوجود نخصُّ منها بالذكر قرية دير القلعة التي كان يحجُّ الى هيكلها اهل بيروت ويقضي فيها مستعمرو الرومان فصل الصيف

والى هذا الزمان ننسب ما اكتُشف في امكنة عديدة من الآثار الزراعيَّة وادوات الفلاحة كالمعاصر والاجران والرحيّ الضخمة (المشرق ٥ : ١٠٧) والنواويس ومدافن لا

١) راجع القاموس العاديَّات اليونانيَّة والرومانيَّة لساغليو (Saglio) ك ١ ص ١٥٠١

يستقصي عددها منقورة في الصخور وكان الرومان كلّفين بغرس الكروم فبعثوا همّة الاهلين على فلاحتها فما عتّمت صنوف الخمر اللبنانيّة ان اشتهرت في العالم الرومانيّ فعُرفت بالخمور البيروتيّة (راجع بلينيوس ك ١٤ ع ٦,٧ وك ١٥ ع ١٨,١٧) . ومن ادلّة الزراعة انّك ترى بين اليمّونة وبعلبكّ كتابات عديدة تحدّ الاملاك وتفرز بينها . وفي امكنة اخرى كتابات غيرها منها لاتينيّة ومنها يونانيّة يُستفاد منها تعدّد السكّان وتوفّر المنازل . وهذه الكتابات قد اثبتناها في مقالاتنا في مطاوي كلامنا عن كل محلّ بمفرده فلتُراجع . ولدينا غيرها ايضًا سننشرها ان شاء الله عند بحثنا عن القرى الواقعة في المنعطف الشرقيّ من لبنان حيث نشأت قرى عامرة بعضها في جوار بعلبكّ وبعضها في ضواحيّ زحلة كفرزل ونيحا وجديتا . وممّا يجدر بنا ذكرهُ انّ كلّ هذه الكتابات والعاديّات لا تتجاوز القسم المتوسط من لبنان اعني الى نحو ١٠٠٠ متر من سطح البحر وفي وذلك دليل على انّ القسم الاعلى لم يُتّخذ بعد للسكنى وانّما كانت الغابات تكلّلهُ كما في القرون السالفة

*

وفي اثناء ذلك ظهرت النصرانيّة ففتح ظهورها بابًا جديدًا للتمدُّن والحضارة في لبنان . فانّ المستعمرات الرهبانيّة التي ذكرناها سابقًا (المشرق ٤ : ٢٦٣) اتّخذت لبنان منزلًا لاعمالها النسكيّة وقد اختارت لذلك اقفر ما وجدتهُ من الاودية فصار النسّاك يُجيلون فيها يد الحراثة . حتى اضحت هذه المناسك بعد قليل مراكز لضياع عديدة كما جرى في اوربّة حيث ترى مدنًا كثيرة كانت في اوّل امرها ديورة للرهبان أوى اليها القوم فصارت مع تمادي الايّام بلادًا واسعة

ولكن لا يسعنا السكوت عن امرٍ يذهلنا ايّ انذهال وهو قلّة الآثار النصرانيّة في لبنان قبل القرن السابع فانك لا تكاد تجد اثرًا واحدًا منها يمكن نسبتهُ الى النصارى بلا ريبٍ مع كثرة العاديّات الوثنيّة الموجودة في انحاء الجبل . وكذلك ترى من الكتابات اليونانيّة واللاتينيّة قسمًا صالحًا وهي كلّها لعبدة الاصنام اللهمّ الّا خمس او ستّ منها باليونانيّة . فيا ليت شعري ما السبب في ذلك . أليس هذا دليلًا على ما لاقتهُ النصرانيّة في سبيلها من العراقيل لمّا حاولت ان تنشر تعاليم الخلاص بين اهل لبنان . ولنا في تعليل ذلك سبب آخر وهو انّ الفوز الاخير الذي نالهُ الدين النصراني في لبنان انّما كان

على يد قوم من الاراميين ليس من اليونان ولذلك لا تجد من الكتابات اليونانيّة النصرانيّة الّا النزر القليل

فان تخطّينا الآن الى ذكر تاريخ لبنان في القرن السابع وجدنا هذا الجبل قد دخل في طور جديد بظهور المَردة والموارنة الذين لعبوا دورًا مهمًّا في طوارئهِ المختلفة. وكان قبلهم لم يُفلَح منهُ الّا ساحلهُ ووسطهُ بعد تجرّدها من غاباتها امّا لبنان الاعلى والجرد منهُ فانهُ لم يزل قفرًا خاليًا من السكّان حتى أوى اليهِ الموارنة فاضحى معمورًا حافلًا بالقطين كبقيّة نواحي لبنان. وسنبيّن ان شاء الله قريبًا كيف تركّبت الأمّة المارونيّة الّا انّا نقدّم على هذا البحث فصلًا آخر في شعوب لبنان القديمة وسكّانهِ الاوّلين

(ستأتي البقيّة)

مآثر العراقيين ودواثر البابليين السابقين

لجناب الدكتور الفاضل نابليون ماريني البغداديّ

(المشرق) هذه المقالة كملحق لما كتبهُ حضرة الدكتور البارع في المشرق العام الماضي تحت عنوان « ما ورثهُ اهل العراق عن الاشوريين والكلدانيين » (المشرق ٤ : ٩٢٨؛ ٩٨٦؛ ١٠١٧؛ ١٠٧٣)

لو نُشرَ البابليون من قبورهم وتأمّلوا ما هم عليهِ اليوم خلفاؤهم العراقيّون من العوائد والصنائع والفنون الخ. لقالوا « من أشبه اباه فما ظلم وما انتم أيّها الاحياء الّا ابناؤنا ولذا يحقّ لنا تملّك البلاد عملًا بالسُنّة العامّة ان الاشياء تُنزع من الوكيل اذا عاد الاصيل ». فممّا أشبه بهِ المتأخرون الاقدمين الإضرار اي تعدّد الزوجات فقد كان الاشوريون والبابليون جارين على هذه العادة وفقًا لشريعتهم وهي اليوم سنّة اهل العراق اللهمّ الّا النصارى منهم

وكان يحقّ على الوالد في ذلك الزمان عند تزويجهِ بنتهُ ان يجهّزها باثاث البيت والحوائج الخ. وفي متحف لوفر الفرنسي عاديّة مشهورة باسم حجر الموسيو ميشو فيها مسطور ما اعطاه والدٌ لابنتهِ من الجهاز والظاهر انهُ كان من الواجب على العروس ان تأخذ معها سند جهازها مختومًا بيد والدها كي لا ينكر عليها زوجها ما حملتهُ اليهِ من الاثاث والفرش (١)

(١) راجع تاريخ لونرمان Lenormant: *Histoire ancienne des peuples de l'Orient*. T. V, pp. 84 et 98.

واذا رُزقت المرأة ولدًا حملتهُ على ظهرها او على صدرها وذهبت به لقضاء حاجاتها في السوق او في البيت. وفي متاحف اوربة جملة عاديات تمثل نساء حاملات اولادهنَّ على اظهرهنَّ كما تراهنَّ اليوم في شوارع المدن (١

وكان الاشوريون والبابليون اذا عمدوا للاكل وضعوا الصينية على كرسي وقعدوا حواليها متربعين مثل العرب وقد طوَوا ارجلهم تحتهم ومنهم من كان يأكل على مائدة عالية ويجلس على كرسي مثل الافرنج وهو يتناول الاكل بالمشكّ والملعقة (٢

وفي غير ساعات الاكل اذا جالسوا صدقيًا تربعوا أريكةً الواحد بازاء الثاني حتى ان ملكهم ذاته يقعد هذه القعدة في قصره الملكي في خلوته مع اهل بيته. وفي المتحف البريطاني صورة ملكة اشورية هي وصلة من حيطان قصر الملك اشور بانيبال ذاته جالسًا على اريكة مرتفقًا مرافق ناعمة ماسكًا بيده الواحدة زهرة ورافعًا بيده الثانية كاسًا ليشرب والملكة جالسة بازائه على كرسي ذي مسندٍ للظهر وارجلها واقعة على مائدة وماسكة بيمينها مروحة وبشمالها كاسًا لتشرب وفي اذنيها اقراطٌ كبيرة وفي رقبتها طوق من الحجارة الكريمة وحواليها الجواري مهتمّات بخدمتها بنشاط لا مزيد عليه

وكان من عوائدهم ايضًا ان يبنوا الدار ثلاثة اقسام: قسم يختص بسكنى الحرَم وقسم موقوف للرجال والقسم الثالث مرصود للعبيد والجواري والمطبخ. هذا ما تحققهُ العلماء المستشرقون عند حفرهم قصر نينوس (٣

وكانت النساء لا ينزلنَ الى المطبخ لمساعدة الخدام او لمناظرتهم بل يرخينَ لافكارهنَّ عنان التيه والتخيُّلات الفارغة كما هي العادة اليوم. قال الموسيو برو (Perrot): «لو اصلحتُ مثلًا قصر نينوس اصلاحًا تامًا على ما هو مخطوطًا لتسكّنتْ اي عائلة شرقيّة كانت من السكنى فيهِ بدون ان تُلحق بالبناء تغييرًا البتة. وكانت البغضة بين النساء القديمات لا تطفأ نارها الّا بالتفريق بينهنَّ. وكُنَّ يتسترنَ كل التستر ولا يسمحنَ لاي غريب كان ان ينظرهنَّ ولا يجوز لهنَّ الخروج الى ظاهر البيت وكانت اعين ازواجهنَّ تتبع آثارهنَّ اينما توجّهنَ وكيفما تكلّمنَ ان فوجئنَ بمكالمة شخص او عبد بمكالمة يُشكّ فيها فالقتل يكون جزاؤها الوحيد. واذا عزمت احدى النساء على الانثار

١) راجع الكتاب نفسهُ Idem T. V, p. 98
٢) Idem T. V, p. 124
٣) Idem T. V, p. 28

من ضرّتها يسهل عليها ذلك اذ تجد دائماً في قربها من يُنقِذ مبتغاها على الفور (١
ومن عوائدهم ايضاً الاجتماع والتنزّه عند ابواب سور المدينة وعند ابواب الدار اذ كان القدماء يبتنون وراء باب الدار او وراء باب المدينة مصطباتٍ (وبلسان العرقيين دكّاتٍ واحدتها دكّة) للجلوس عليها اذا قصدوا محادثة صديق او التنزه للتفريج عن القلب وعليه فكانوا يذهبون كل يوم بعد انتهائهم من شغلهم الى سور المدينة ويتربّعون على مصطبات ابوابه حيث يلتقون زرافاتٍ يقضون هناك ساعاتٍ متواليةٍ في استنشاق النسيم او لماطاة الاشغال او للنوم او للاستخبار عن ماجريات ذلك النهار

هذا وقد سردنا بعضاً من عوائد البابليين والاشوريين المهمة نقلاً عن كتب المؤرخين وكلُّ عراقي في عصرنا هذا بعد تصفّحه ما كتبناه لا يتمالك ان يعترف بوجود تلك العوائد وهي جارية مجراها بدون ان يطرأ عليها ادنى تغيير. فلا حاجة اذن الى تكرارها واثباتها بانها لم تزل دائرة بين اهل العراق في جميع اطرافه لا يُستثنى منها الّا عادة واحدة وهي الاجتماع والتنزه عند ابواب سور المدينة فان الزمان قد ارخى عليها ستر الامحاق. وبيس جزرها حتى في اغلب مدن العراق. الّا في الموصل واطرافها كما يؤكده لنا النقلة الحذاق. قال المسيو فكتور بلاس (Victor Place). «شاهدت مرأى العين مرّات عديدة حاكم الموصل محتاطاً بحاشيته يقضي امور الخلق عند باب السور المفتوح من جهة نهر دجلة». والمسيو ليَرْد (Layard) يؤكد لنا ان في سميل (بلدة واقعة في شمالي الموصل) يذهب شيخ اليزيدية الى باب المدينة الكبير ليقضي بين ملته. قال الموسيو پرو: «وعلى هذا الاثر كان البابليون يسيرون في قاعدة مملكتهم ومن ذلك اسمها باب إيلو (Bab-ilu) اي باب الله ومعناه باب العدل حيث تُقضى الاشغال طبق ارادة الالهية من باب تسمية الشيء باسم الاهمّ منهُ. ومن هذا قولهم للدولة العليّة الباب العالي (٢». اهـ

وكانت العادة ايضاً جارية عند الاشوريين وعليه كان المساكين والمتظلمون وطالبو بعض النعم ينتظرون عند باب القلعة او عند باب القصر مرور الملك او واحدٍ من الوزراء

(١ راجع Perrot et Chipiez : *Histoire de l'Art dans l'Antiquité* T. II page 440.

(٢ راجع كتاب پرو Idem. T. II, p. 187 et 188.

صاحب نفوذ ليعرضوا عليه قضاياهم. وكان يتتبعهم القاعدون عن الشغل لاستماع الاخبار وتجسسها. اقول ولهذا السبب ترى اسوار المدن القديمة وابواب قصورها مزينة باجمل النقوش البديعة تدلُّ على مهارة فنٍّ دقيق وصناعة عجيبة كلُّ ذلك اكراماً للملك ولعظماء الدولة الذين تعوَّدوا المرور بتلك المواضع. وفي التوراة ما يغنينا عن ذكر ما جاء به المستشرقون والاشوريون فقد ذُكر فيها انهُ: « جاء الملاكان الى سدوم عشاء وكان لوط جالساً بباب مدينة سدوم (سفر تك ١٩ : ١) ». وفي موضع آخر: « فاجاب عفرون الحثي ابراهيم على مسامع بني حث امام كل من دخل باب مدينته... فوجب حقل عفرون الخ... ملكاً لابراهيم بمشهد بني حث وجميع من دخل باب مدينته... (تك ٢٣ : ١٠ و١٨) ». وفي موضع ثالث: « وصعد بوعز الى باب المدينة وجلس هناك فاذا بالولي الخ. (راعوت ٤ : ١ و٢) ». فلا ريب اذاً فيما قرَّرناه وهو ان الناس كانوا يتقاضون عند باب المدينة او عند باب الدار او عند باب القصر والشاهد الاخير بهذا الصدد ما جاء في سفر أستير اذ كانت وقتئذٍ امرأة احشورش الملك اذ قيل ان المحاورة العنيفة التي دارت بين هامان ومردكاي حدثت تحت باب قصر الملك المذكور

(العائلة والعشيرة) اذا سألت اليوم اعرابياً عن اسمهِ اجابك على الفور ان اسمي عباس واسم والدي خليل ثم يردفهما باسم العشيرة المنتمي اليها وباسم شيخها كل ذلك يحفظهُ عن ظهر قلبهِ ويدرسهُ منذ صغره وربَّما سها عن تعليم اصول ديانتهِ واكتفى بما يعرفهُ عن قومهِ. والاعرابي او الكردي العراقيّ يحبُّ شيخه او اميره محبَّة تقضي بهِ مراراً الى افتدائهِ بنفسهِ وتفوق محبة ولده لعلمه ان الشيخ يُنزله منزلة عزيزهِ

ويوجد الآن في العراق عدد وافر من العشائر تائهة في البراري تعيش تحت الخيم يتنقَّلون من مطرحٍ الى مطرح كل عائلة تلحق رئيسها والرؤساء تلحق شيخها. ومن ذا الذي سكن البرية ولم يدخل تحت راية واحدة من الشيوخ؟ ومن واجبات كل عشيرة ان تحافظ على شرفها وتدافع عنهُ بالنفس والنفيس وعلى كل فردٍ ان يؤدّي الاكرام والاحترام الى شيخهِ وان يساعدهُ بمالهِ واولادهِ في اي وقت اراد وعليهِ ايضاً ان يزور في المواسم قبور مشايخهِ المتوفّين وعلى كل واحد من اي عشيرة كان ان يصغي الى كلام شيخهِ ويطَّلع على خفايا واسرار تلك العشيرة ويميز اعداءها من اصحابها

وايّاك ايّاك من ان تهين اعرابياً ما مهما كان مسكيناً او فقيراً بل ولا امرأتهُ ولا

ولده ولا ماله. وان قتلت الشخص المهان فلا يتركنك مرتاحاً والده ولا اخوه ولا واحد من عشيرته واذا أحوجت الحال تتبعك شيخهُ مع قومه ويثأر منك ولو بعد اربعين سنة وفي العراق مثل دارج يقول: ان الاعرابي يأخذ بثاره ولو بعد اربعين سنة من مرور الحادثة. واذا ضاق الزمان بواحدٍ التجأ الى شيخهِ وظلّ يأكل ويشرب في بيته حتى يقوم من سقطته

وهكذا كانت الامور جارية عند الاشوريين والبابليين ونستشهد هنا بكلام فرنسوا لنورمان اذ يقول: «من العجب العجاب وجود الالفة المكينة بين اعضاء عائلة او عشيرة اشورية كانت او بابليّة. فاولئك الاعضاء يتحدون اسماً وجسماً ويصبحون يداً واحدة وذلك ليلزموا الغير على احترام عهودهم واشخاصهم من عبدهم حتى رئيسهم. فالهيئة الاجتماعيّة البابليّة اذن كانت منقسمة الى عشائر وعائلات وعلى كل عضو ان يحفظ اسم جدّ عائلته او عشيرته وان يطيع رئيسهُ طاعة حقيقة وكان نظام اولئك البابليين وترتيبهم يضاهي عشيرة من عشائر حضر العرب الحالية الغنيَّة وعلى الاعضاء من ايّ عشيرة كانوا ان يذكروا اولاً اسماءهم الشخصيَّة فاسم آبائهم فاسم العشيرة المنتمين اليها (١).»

(العبوديّة) لقد بلغ الاشوريون والبابليون من رفيع التمدن درجة زاهرةً زاهية يعترف لهم بها العلماء المستشرقون الواقفون على آثارهم. ومع كل ذلك لم يخلوا قطّ من نقيصة باهظة ثقيلة تمحق الانسانيَّة. ألا وهي العبوديّة. كان اولئك القدماء يبيعون ويشترون العبيد بيضاً كانوا او سوداً وهم الاسرى الذين تجلبهم ملوكهم في كل سنة إثرَ انتصاراتهم. ولقد سبق منا القول ان الملك كان يوزّع الاسرى على كل عشيرة وامير كلٌّ حسب استحقاقه. واذا زاد العدد المحدود في بيوتهم عرضوا البقية من اولئك الاسرى للبيع بالمزايدة. وكان في كلٍّ من مدنهم وارباضهم محل خصوصي لذلك يذهب اليه الراغبون في مشترى العبيد. وعلى قدر ما يكون العبد الاسير جميل المنظر سَهُل على سيده بيعهُ وكانت الشريعة تسمح للبابليين ان يتزوجوا البنات الاسيرات بلا مانع ولا رادع. وربّما كان كلام هيرودوتس عن بيع البنات على وجه الاطلاق هو خاص عندهم ببيع الاسيرات منهنّ وليس بيع البنات البابليات الحقيقات (راجع المجلّد الثاني من كتابه)

(١) Lenormant T. V, p. 86 et 87

وفي متاحف اوربّة للعاديات نصّ بمشترى وصيفة عُدّت من جملة نساء المبتاع ودونك مؤداه: « لقد اشتريت الأمة المساة طاوة حسينة (Tawat Hasina) بقيمة تساوي ستّة عشر درهماً من الفضة على يد امرأة مصريّة اسمها نيتكريس التي اهدت تلك الوصيفة الى ابنها تاكوس بفرصة زواجهِ وذلك لكي تكون من جملة نسائهِ (١

وفي تلك الأيام كانت قاعدة تجيز للواحد ان يستبدل عبده بعبد آخر والشاهد على ذلك ان العلامتين اوبير ومنان قد وقفا على نصّ عاديّة بهذا المعنى ومن يشكّ فيهِ فليراجع كتابهما الصفحة ٢١٢ (٢

وممّا زاد في الطين بلّةً هو ان الاشوريين مع ارتقائهم في التمدن كانوا يعاملون الاسرى العبيد معاملة الكلاب . من ذلك انّهم كانوا يعلّقون في رقاب العبيد قطعة من الفخّار اسطوانية الشكل مكتوب فيها اسم العبد واسم سيده واغرب من ذلك انهم كانوا يدوّنون الغاية التي لها اتخذه سيده حتى اذا أبق العبد استردّه للحال صاحبهُ

والآن في متاحف العاديّات البريطاني سبع عشرة اسطوانة من الفخّار الصلب كلها مثقوبة وفيها محفورة اسماء نسوان والغاية التي لاجلها أُتخذنَ ومن المؤكد ان تلك النساء كُنَّ بابليات الجنس قد سُبينَ الى بلاد اشور بعد افتتاح سرجون بلاد بابل اذ كان ملكها مردوخ باليدين (Marduk- pal-iddin) وهاك نصّ واحدة منها: « المرأة هالة (Halat) اشتراها مارنَريه (Marnarih) في شهر شباط من السنة الحادية عشرة من تلك مردوخ باليدين ملك بابل ». وظلّت هذه العادة الخشنة (اي تعليق اسم العبد الخ) جارية حتى عند الرومانيين ولم يزل بعض القطع منها محفوظة في متاحف اوربّة » اه

هذا وكان من اللازم اللازب على مشتري العبيد ان يتسلّم من البائع ورقة البيع وان يوقّع فيها اسماء عدّة شهود حذرًا من التقلّب في الصفقة . وكانت الشريعة تسمح للعبد ان يحرّر نفسه بان يدفع مبلغاً من الدراهم . والبرهان على ذلك ان الموسيو لنورمان قد وجد في عاديّة ما مؤداه: « لقد دفع (اي العبد) دراهمَ تحريره (٣ »

---

١) راجع Oppert et Menant : *Documents juridiques*, p. 223

٢) راجع الكتاب الصفحة ٢١٢ (*Id.* p. 212)

٣) F. Lenormant : *Etudes Accadiennes* T. III p. 6

قلنا فوق هذا ان البنات المستعبدات كنّ يصبحنَ نساء حقيقيات لسيدهنّ وعليه فكثيرًا ما كان العبيد يفوزون ايضًا بدرجات سامية في الهيئة الاجتماعية البابلية الاشورية وذلك امَّا لجالهم الطبيعي او لذكائهم الغريب او لخدمةٍ يقضونها بمهارة عجيبة او اخيرًا لتضلُّعهم من بعض العلوم او من بعض الصنائع كما توصّل دانيال اليهودي الى درجة حاكمٍ على احدى مقاطعات بابل في عهد الملك نبوكدنصَّر والملك بلشاصَّر

ومن الامور الجارية في ذلك العصر هو ان العبد يؤجّرهُ سيده لمدَّة معلومة وذلك بان يدفع المستأجر مبلغًا كافيًا من الدراهم. وتفكهةً للقرّاء نأتي بترجمة سند يتعلّق بشترى أمة اسمها اربيل صرَّاك (Arbail - Sarrak): « خاتم بَلْ آهي صُو (Bel - ahi - su) ابن مردوخ أبوى (Marduc-abua) صاحب المرأة الباعة وهي اربيل صرَّاك جارية المذكور بل آهي صُو. ان كِصر اشور (Kicir - Assur) المُزارع ومن حاشية الملك قد اشتراها من بَل آهي صُو بقيمة فضةٍ تساوي اليوم ٣٣٧ فرنكًا. ان هذه المرأة قد بيعت والفضة قد دُفعت امَّا فسخ هذا السند والرجوع عن المبيع فهما غير قابلي الوقوع. وفي اي وقتٍ يرغب بَلْ آهي صُو واولاده واحفاده في فسخ هذا السند يجب عليهم حينئذٍ ان يردُّوا الفضَّة المثل عشرة امثال وعلى هذه الصورة يبطل السند وينحل التملُّك. وكان الشاهدون على ذلك سبعة عشر شخصًا. حُرّر في اليوم الثاني من شهر شباط في عهد الوالي مستشار اشور امام الرئيس كِصرنبو (Kicir - Nabu) اهـ (١)»

وظلَّت العبودية جارية مجراها القديم حتى في ايَّام الخلفاء العباسيين لا بل في ايَّام سلطاننا الحالي السلطان الاعظم عبد الحميد خان الذي امر بازالة النخاسة. فاسألك ناشدتك الله ألم تحضر في قوقاس سوقًا يعرضون فيها بالمزايدة بناتٍ وصبيانًا. أوَ ما جُبتَ بلاد العراق او ترأَيتَ ما يفعل اكراده وأعرابه لمَّا يشنُّون الغارة على اعدائهم انَّهم بعد انتهائهم من الغزو يجرُّون وراءهم ما عدا الاسلاب والغنائم جماعاتٍ من البنات والصبيان يعرضونها للبيع او يستعبدونهم او يتبنَّونهم ولذلك ترى كثيرين من اولئك الاسرى يصبحون بعد مرور الايَّام وكرور الاعوام حكامًا او رؤساء قوم او نحو ذلك

واذا بحثت عن السبب الذي يتناقص لهُ عدد الصبَّة واليزيديَّة والنساطرة ترى

(١) راجع Wai, III, pl 46, n° 1 = Oppert et Menant : *Document juridiques* p. 201

يَبِعِ ما يوسرون منهم هو من الاسباب المظيمة الموجبة لذلك النقصان ·

وفي بغداد والبصرة وسائر العراق قواعد تُفرض على بيت احد العروسين ان يقدّم جارية سوداء او حبشية تمشي وراء جهاز العروس لكي تخدمها فيما بعد · واذا كان العروس هو الذي يهدي تلك الوصيفة فيجوز لهُ ان يتزوجها · وعلى المشتري ان يتسلّم من البائع ورقة الجارية فيها مسطور اسمها ولقبها (كقولك انها زنجيّة او حبشيّة او مصريّة الخ) وقيمة مشتراها وعمرها الخ · وينتهي السند بعدة خواتم للشاهدين ولم يزل سعر العبيد على تلك الحالة كما كانت في القديم اي من الخمسة عشرة ليرة الى الخمسين بحسب اصل الامة فان سعر الحبشيّة هو اغلى من سائر الاسعار وادناها الزنجيّة

وعلى العبد ان يخدم سيده طول حياته ولكن كثيرًا ما تراه يهرب تحت جنح الليل فيخسر حينئذٍ سيده العبد وسعره اذ الحكومة لا تقبل شكوى على العبد كما ان كثيرًا ما نرى العبد الامين يخدم في بيت صديق لسيده ولا يجسر السيد استرجاع عبده غصبًا عنه حذرًا من ان يُلحق ضررًا ببيته وكم وكم من الجاريات اللواتي سرقنَ سيدهنّ او حرقنَ بيته نكايةً به

هذا واذا مرض واحد من البيت ينذر مرارًا السيد او السيدة تحرير عبدهما بعد شفاء عزيزها فاذا تمّ ذلك سلّما الى العبد ورقة التحرير مع ورقة مشتراه واطلقاهُ في حال سبيله · واذا اراد وجيهٌ ان يُجيز صديقه او عميله أهداه عبدًا او جاريةً كما كان يجري عند البابليين

قلنا فُوَيق هذا اذا حظيت الامة عند سيدها تزوّجها اذ تُجيز لهُ الشريعة بذلك واذا رزقهُ الله منها ولدًا ورث هذا مع ابن الحرّة على السواء · ولهذا السبب كثيرًا ما تصادف في عراقنا عبيدًا عائشين بكل سعةٍ ورفاهيةٍ او حاصلين على املاكٍ فسيحة او متوظفين في وظائف متعددة او اخيرًا فائزين بدرجاتٍ رفيعة في الهيئة الاجتماعيّة ويحسنون التكلم ويحفظون كسائر الشعوب المتمدنة (البقيّة لعددٍ آخر)

الالفة البشرية

اطّلعنا على خطاب نفيس من قلم حضرة العالم المدقق المنسنيور يوسف العلم الوكيل الاسقفي في بيروت تلاهُ مساء ٢٨ حزيران في دائرة غرفة القراءة لاخوية القديس مارون فوقع منّا موقعاً حسناً واحببنا نشرهُ في المجلّة لنفاستهِ وهذا هو بنصهِ:

لقد خُلق الانسان أليفاً مؤالفاً

انّني رأيتُ بهذه المقالة ان أبيّن لكم يا معشر الادباء الكرام ان الالفة بين الناس طبيعيّة وان الخالق جلّت حكمتهُ قد خلق الناس للالفة لمقاصد منهُ شريفة عائدة الى خيرهم وكمالهم في هذه الدنيا وهي تقضي بهم الى السعادة الخالدة الى الله مرجعهم ومن ذلك نتطرّق الى بيان كون الجمعيّات والشركات والاخويّات والمحافل الادبيّة وما اشبه من المجتمعات الخصوصيّة التي تتألف من افراد من خيار الناس لمقاصد خيريّة عموميّة كمقاصد جمعياتكم النبيلة هي مكمّلة الالفة البشريّة او بعبارة اخرى هي الالفة الكاملة

*

لقد زعم البعض ان الانسان وُجد في اصلهِ معتزلاً متوحّداً في حالة همجيّة هي اشبه شيء بحالة حيوان البرّ او وحش القفر لا بل أوجدوهُ في حالة احطّ منهُ اذ تصوّروه وصوّروه ضارياً مفترساً لا عيشة لهُ الّا براعي شهواتهِ كالبهائم ولا شغل لهُ الّا بتناصية ابن جنسهِ والبطش بهِ على حين انّ الوحوش الضارية لم توجد في هذه الحالة المدانيّة لبعضها فالآساد او الذئاب مثلاً لا يبطش بعضها بالبعض الآخر والّا لبادت منذ أمدٍ بعيد. وها نحن نرى الاطفال الصغار الرضاع تكذّب تصوّرات هؤلاء بما يبدونهُ لبعضهم من التقارب والتحابّ من ذات طبعهم بحيث لو اردتَ فصل الواحد منهم عن اخيهِ لوجدتَ فيهم تمنّعاً وصعوبةً

ثم انّهم بهذه الصورة التي احبّوا ان يصوروا فيها الانسان لم يبقوا على نفسهِ الشريفة التي تترفّع عن هذه المنزلة الدنيّة البذيّة. فهو السيد العظيم المتسلّط على هذه الموجودات كالطيور والاسماك والحيوانات وسلطتهُ هي من العلاء من لدن الله تعالى لقوله (مز ٨ : ٧) « وعلى اعمال يديك سلطتهُ الغنم والبقر وجميع حيوان البرّ ». لكنّهم لفساد افكارهم

جعلوها اشرف منه وهذه سفاسف منهم ساقطة لا يُعبأ بها وما اشبهها بالحكايات والخرافات او هي تخيّلات وهميّة لم يوردوا عليها من بيّنة ولا حجّة . وها ان تواريخ جميع الامم لم تورد شيئاً عن حالة الانسان هذه الوحشيّة الفرديّة الذميمة . نعم ذكرت التواريخ تقدّم الالفة في امّة دون امّة وتفاوت شعبٍ عن شعبٍ آخر فيها باستكمال اسباب المعيشة ونظامها لكن لم تُفِد تلك التواريخ ان الطائفة البشريّة وُجدت افرادها كلٌّ منهم معتزلاً متفرّداً عن الآخر لا يألفهُ ولا يراعيه لا بل لا شغل لهُ الّا بمناصبته ومحاربته حرباً عواناً متصلة لا هدنة فيها ولا صلح . على انهُ لو فُرض وجود بعض البشر على تلك الحالة فذلك من الشوارد النوادر وعلى النوادر لا تُبنى قاعدة ولا قياس وهو كمن يُولد اصمَّ أبكم او ذا عاهة . واذا بحثنا عن حقيقة شروده وجدنا السبب وعند معرفة السبب بطل الاعتراض على هذا المبدإ الذي لهُ من الادلّة اللامعة والحجج الساطعة ما لا يُعدّ ولا يُحصى وكلها تؤيد كل التأييد كون الانسان من طبعه وُجد أليفاً مؤالفاً او كون الالفة وجدت بين الناس من اصلهم . ونحن نكتفي الآن لضيق المقام بايراد بعضها فنقول :

١ (اولاً) ان الانسان بمجال دخوله هذا الكون طفلاً صغيراً نراهُ يحتاج كلّ الاحتياج الى وسائط ووسائل خارجيّة لوقايته وحياته بخلاف الاسماك والطيور والحيوانات العجماء . فان الطبيعة تؤتيها ما يلزم لوقايتها ومعيشتها فالانسان اذاً مولود وموجود للمخالطة والالفة من ذات الطبيعة . قال القديس توما فيلسوف النصرانيّة الشهير : « انهُ طبيعيّ للانسان اكثر جدّاً من جميع الحيوانات ان يكون حيواناً اليفاً سياسيّاً عائشاً بين جماعةٍ . ودليلهُ حاجاتهُ الطبيعيّة فان الطبيعة قد اعدّت لباقي الحيوانات غذاءها وكساءها وصوانها كالجلد والصوف والمخالب والبراثن والقرون والاظافر او على الاقل كالاسراع الى الفرار والنجاة بخلاف الانسان فالطبيعة لم تُعطهِ شيئاً من هذه بل أعطتهُ بدلاً منها فهماً مع معاونة يديه لتحصيل هذه اللوازم . ولكن لا يكفي انسان واحد لتحصيل هذه كلها لان الانسان الواحد غير كفوءٍ من نفسه لان يحيا اذ انهُ وحدهُ لا يكفي لتحصيل حاجات المعيشة . وزد عليه انّ باقي الحيوانات غُرس فيها من طبعها ان تحسّ بما ينفعها وما يضرّها فالنعجة مثلاً تنفر طبعاً من الذئب لانهُ عدوّها وبعض الحيوانات تحسّ بان عشبةً كذا هي دواء شافٍ لها او انها ضروريّة لا لحياتها بخلاف

الانسان فانهُ يتوصَّل الى معرفة ضروريات حياتهِ ولوازم معيشتهِ بمفرداتها الَّا بالالفة لانَّ الواحد لا يستطيع الوصول الى معرفة كلّ من هذه اللوازم والى تحصيلها باستعمال ما عنده. فترتّب عليهِ ان يعيش بين كثيرين يساعد احدهم الآخر على تحصيل لوازم المعيشة متشاغلًا كلٌّ منهم بكلٍ منها »

وها نحن الموجودين هنا نرى مصداق ذلك فينا فالملابس التي نلبسها من صوف وكتان وحرير وجوخ مثلًا كم اقتضت من الاعمال والعمَّال فالحرير مثلًا كم اقتضى من الاشغال كغرس توتٍ في الارض وحراثتهِ وملاحظتهِ مدةً لقيامه ثم استجلاب بزر الدود ثم تربيتهُ ثم شغلهُ في المصانع والمعامل ثمَّ . . . ثمَّ . . . الى ان صار يصلح للّبس. ومنهُ الطعام الذي نأكلهُ فاننا نسعى اولًا في طلب البذار ثم في شغل الارض لزرعهِ فيها. والحارث الذي يزرعهُ يحتاج الى محراث وهذا يحتاج الى نجارة وحدادة واشياء أُخر لربط ادوات الحراثة. والزرع في الارض يحتاج الى نظارة وملاحظة ثمَّ حصاد. وهذا يحتاج الى ادوات وفعلة وبعد الحصاد الدراس وهذا يحتاج ايضًا الى مثل ذلك. ثم الى الطحن والطحن يلزمهُ مثل ذلك. وبعد الطحن يلزمهُ عجن وخبازة وكل هذه تحتاج الى ما تعرفونه. واذا انتقلنا من الخبز الى باقي الوان الطعام الذي نأكلهُ وجدناها مثل الخبز في كثرة حاجاتها وحساباتها. واذا قمنا عن الطعام الى السرير الذي نرقد عليهِ وجدنا الامر كذلك. ومثلهُ البيت الذي نسكنهُ. ومثلهُ الفرش والاثاث والرياش التي تزينهُ فلو عددنا بتدقيق كل ما لزمها من الوقت والشغل والمتشاغلين والبيع والشراء حتى توصَّلت الينا لاقتضى ذلك وحدهُ كثيرين كما يعرف كلٌّ منا

واذا نظرنا الى ما يختص بنا من لوازم العقل او النطق لتخريجهِ وتفقيهِ في المعارف والعلوم ايَّةً كانت رأينا ان ذلك قد استلزم اتعابًا وانصابًا اشدَّ كما استلزم ايضًا اجيالًا وأحقابًا. فكم وكم من الناس تشاغلوا في امر اللغة التي نعرفها من جمع كلماتها وتفسير عباراتها واشاراتها وضبط حركاتها وربط قواعدها وبيان مواردها خلا الذين وضعوا اوضاعها وحاكوا بضاعتها وصاغوا متاعها وانشأوا معاهدها واقاموا محاتدها فانَّ طول المدى بيننا وبينهم يحول دون معرفة ما لاقوا من المشاقّ وصرفوا من الأيام والاعوام في مدّهم امامنا مجرًا من لغتنا العربيَّة الشريفة التي ترفُّ باجنحتها على اكثر اللغات في تقادم عهدها وعراقة مجدها وغزارة موادّها وتفنُّن ابنائها واجدادها حتى لو قضى الواحد عمرهُ

في مطالب غناها ومباحث خبرها ومبتداها لفاتهُ منها امورٌ شتّى ومات وفي قلبه شيء من حتّى. وما لنا وهذا التطويل وكفى اللبيب منهُ اشارة فلنعد الى موضوعنا وفيه قال المعلم فيكتور كوزين: « لست ارى قولكم بانَّ الانسان ليس هو من طبعه اليفاً الّا تخيّلًا ووهمًا. قولوا لي ايُّ امتحان سوَّل لكم ان تقضوا عليه بانهُ من طبعهِ غير ميّال الى الالفة ؟ لا بل ايُّ امتحان ادَّى بكم الى الريب في ذلك ؟ نعم ان الاختلاف في الاعصار والامصار والاصول والفصول قد ألبس هيئة الالفة ملابس مختلفة وصوَّرها في صور واشكال متباينة الّا ان مبدأها واحد وما زال كذلك. ولو فرضنا ان قد غشيهُ طارئ من افات الالفة ذات وقت الا انهُ لم يلبث ان عاد باسرع ما يمكن الى عهد جماله زاهيًا زاهرًا »

٢ ان الطبيعة ميَّزت الانسان عن غيرهِ من الحيوان بقوة النطق والكلام ولكن ايُّ فائدة من وراء ذلك بدون الالفة أيقدر الانسان من ذات نفسه ان ينطق بلغة او تراه يخاطب خياله. ان الكلام انما هو لتأدية افكاره الى غيره فاذا لم يكن مترتبًا من طبعهِ للالفة لم تكن عطيَّة الطبيعة هذه الخصوصيَّة لهُ الّا سدًى لا نفع منها. قال كبير فلاسفتنا الاكويني: « لمَّا كانت الطبيعة قد وهبت الانسان نعمة الكلام وليس الغرض منهُ إلا المواصلة بين الناس في ما يفيد وما لا يفيد وما يحسن وما لا يحسن الى نظير ذلك ولمَّا كانت الطبيعة لا تعمل شيئًا عبثًا لزم من ذلك ان الاختلاط بين الناس هو من الطبيعة وهذا الاختلاط بَنى البيت ثمَّ المدينة »

٣ ان في الانسان وجبلَّته اميالًا مغروسة تميل به الى مشاركة غيره بما لديه فالعالم مثلًا يحب ان ينشر علمهُ ومعارفهُ بين الناس كما يحب اذا كان في غمٍ او فرحٍ انَّ يشاركوه ويشق عليه لو غادروه وشأنه. وهكذا لو رأى الانسان غيره مسرورًا او حزينًا فانهُ لا يتمالك من التأثر معهُ وبالاحرى لو رآه في طامَّة كبرى فلا يتمالك من المبادرة الى معاونته اماً بيديه واماً بماله او على الاقل بلسانه. وهذا النوع الاخير اي المساعدة بالكلام كثيرٌ ورائج عند الكثيرين لا بل الاكثرين لكنهُ اذا لم يكن صاحبهُ قادرًا على غيره كان مقبولًا والّا فلا. قال يعقوب الرسول: « ما الفائدة ايها الاخوة اذا رأى احدكم اخًا او اختًا عريانين وليس لهما طعام يوم وقال لهما اذهبا ادفئا واشبعا ولم يعطهما شيئًا »

٤ ان في الانسان استعدادًا للترقي والتكمُّل ألا انَّ استعدادهُ هذا لا يفيدهُ شيئًا من دون الالفة وهذا الاستعداد هو في الانسان دون باقي الحيوانات. فالحمار مثلًا منذ آدم حتى الآن والى منتهى الأيام لا يزال على ما كان وقس عليهِ باقي الحيوانات. واماَّ الانسان فلما هو عليهِ من التهيُّؤ للترقي من ذات طبعهِ قد ترقَّى وما زال يترقَّى وما ذلك إلا لوجودهِ بين جماعات قد استجمعت قوى مختلفة واقتسمت بينها الاعمال فقام كلٌّ منها بما هو اهلهُ. وما توصَّلوا اليهِ من الاختراعات والفنون والاكتشافات في احد الاجيال الغابرة تركوه بعدهم فتوارثهُ اهل الجيل التالي فتداولت الاجيال آثار اولئك الرجال وهكذا ما برح الانسان يتدرَّج في مدارج المعارف والكمال ولولا ذلك لبقي الانسان على حالة واحدة.

لا يخفى عليكم يا معاشر الادباء الفضلاء ان الناس هم بمنزلة قطع او اجزاء لمجموع الطبيعة بكاملها فلا يظهر ما عندها ولا يعرف ما هي قديرة عليهِ اذا ما اخذنا كلًّا منهم على حدتهِ ولكن عند تاليفهم وضمّهم معًا جملةً نعلم عظمة مقدرتها فهم والحالة هذه اشبه شيء باعضاء جسم لا يتبدَّى لهُ عمل ولا جمال الا باستجماع كل اعضائهِ. قال فم الذهب قولًا خليقًا بان يكتب بماء الذهب. «ان الله تعالت حكمتهُ لمَّا شاء ان نكون متحدين مرتبطين بالالفة كاملة لم يخلقنا فقط من أبٍ واحد بل جعل فينا ايضًا افتقارًا الى بعضنا. وعليهِ جعل في كل من الارضين حاصلات وغلَّات ليست في غيرها حتى انَّ البشر في كل المعمور يتبادلون ويتقايضون ما عندهم من الحاصلات فيرسل اهل هذه البلدة ما زاد عنهم من حاصلاتها الى البلدة الاخرى ويستأتون بدلًا منها ما يعوزهم من حاصلات تلك وبهذا تحصل بينهم المعاملات والمواصلات. وفوق هذا ان حكمة الله جعلت سرًّا عجيبًا في البشر وهو ان لا يكون احدهم عليمًا وخبيرًا في كل الامور بل اعدَّت هذا لأن يكون تاجرًا وذاك فلكيًّا الى غير ذلك من تقسيم الطبيعة على افراد الناس بحيث لا ينفكُّ احدهم مفتقرًا الى الآخر ولا ينقطع بينهم رباط الائتلاف والحبّ» اه. قال شيشرون الفيلسوف الشهير: «ان يد الطبيعة لقَّحت في كبدنا حبَّ الالفة» اه

٥ واماَّ الائمَّة المتأخرون فقد توسَّعوا في هذا البحث وبسطوه. ومنهم فيلانجاري القائل: «انَّ باريْ الطبيعة لو لم يخلق الانسان للالفة لأتى أمرًا مخلًّا في اجلّ اعمالهِ فما

ترى كانت الفائدة من إعطائه عقلًا لا يتنحّ ولا يتخرّج الّا بالمباشرة والمخالطة ؟ ولماذا إعطاؤه قوّة بها يطبّق تصوراته على الفاظ واصطلاحات تؤديها الى فهم الغير؟ ولماذا لم يعطِ كلّ الناس درجةً متساوية من القوّة والعمل والفهم ؟ ولماذا زرع في قلوبهم بذار الرحمة والرأفة باقرانهم وجعلهم يتطلبون ارتياحهم وامتداحهم ويتوخون رضاهم وثناءهم ؟ لا بل لماذا جعل بينهم الغيرة والمنافسة فان هذه الانفعالات المغروسة في جبلّة الطبيعة لا بل في الطينة الآدميّة لم يكن لها موقع لو لم يكن الانسان من اصل طبعه معدًّا للالفة والاختلاط مع الناس » اه

سبحانك اللهمَّ من حكيم قدير ربطت البشر بعضهم ببعض بهذه الروابط القويّة لا بل قيّدتهم بهذه السلاسل العجيبة المسبوكة بحاجاتهم وعواطفهم واستكمال عقولهم ومعارفهم . . . امّا نحن معاشر النصارى فانك لم ترضَ لنا بهذه القيود الطبيعيّة بل جعلتَ لنا من وجهِ الشرف والمجد قيودًا ادبيّة ذهبيّة لا بل سماويّة الهيّة اذ أمرتَ بان تكون الالفة والمحبّة بيننا شعارًا لنا بكوننا تلاميذك واولادك لاننا كلنا اخوة متساوون في العماد والايمان والكنيسة ومعدُّون لوراثة ملك واحد في السماء . فتكون المحبة والحالة هذه بيننا وهي اقوى رباط للالفة شريفةً روحانيّة لا ارضيّة حيوانيّة . هذا فضلًا عن كون كلتا المحبّتين مترتبتان علينا من وجهين من حيث كوننا اناسًا لابسين الطبيعة البشريّة ومن كوننا مؤمنين بك وبانجيلك المقدّس الذي قد تنضّل علينا بان رسم لنا هذه الرسوم اللطيفة للالفة التي هي اشرف من عمل موسى في جانب بني اسرائيل . فانَّ وصايا الله كانت منقوشة من يد الطبيعة على صفحات لحيَّة في قلوبهم لكن لمَّا غشيتها غشاوة هبطت على عيونهم عاد فرسمها لهم وسطّرها باحرف كبيرة على الواح حجارة . غير أنَّ عملك في جانبنا والحق احق ان يقال هو اجلّ واشرف وأحلى والطف . فهناك نساعد الفقير بحسب مبادئ الطبيعة قضاء لرغائب فينا او مآرب لنا اذ قلنا ان الانسان ميّال الى الالفة لافتقاره الى ابن جنسه او لعاطفة نحوه من نفسه انتظارَ ان يعاملهُ بالمثل وامَّا هنا في الشريعة الانجيليّة المقدَّسة فاننا نبذل الاحسان الى الانسان كأننا نبذلهُ الى شخص السيد المسيح لهُ السجود والتسبيح وهو تعالت جودتهُ يحاسبنا به يوم الحساب العام تجاه الملائكة والانام ويعطينا بدل الواحد مائة لا بل اضعاف الاضعاف

اقول اخيرًا انهُ لقد ثبت مَّما قدَّمنا انَّ الانسان وُلد للالفة ووجد لها والالفة

خُلقت لهُ ولكن يردُ علينا ثلثة سوءالات كانها اعتراضات: (الاول) كيف تعلّم الانسان في بدء وجوده لغةً واين كانت الالفة يوم وُجد اوّل انسان ليتعلم منها لغةً هي اوّل اللغات وُمرضعها ؟. (الثاني) وان كان الناس وُجدوا للالفة والالفة خُلقت معهم ليكونوا موءالفين ومتآلفين فلماذا لم تكن الارض بينهم بالتساوي حفظاً لميزانيَّة الالفة او لماذا لا يتقاسمونها الان بالسَّواء دفعاً للخصام والقتال الحاصل بينهم بسبب عدم المساواة وهذه كلها آفات على الالفة التي اجهدت نفسك في بيان اركانها وتوضيح دليلها وبرهانها. امَّا الاعتراض (الثالث) وهو الاهمّ والاعمّ فهو ان كانت الالفة وُجدت للناس والناس وجدوا لها فلماذا نرى بينهم التباين العظيم في ما سوى ذلك من خيور الطبيعة وعطاياها وحظوظها وبلاياها وبعبارة ثانية لماذا نرى هذا غنيًّا سريًّا مع ما هو عليهِ من نواقص المعارف ونقائص الاعمال وذاك على ما فيهِ من سموّ المدارك وحسن المسالك في اسوأ حال يركض الحظُّ من امامهِ اكثر ما يركض هو وراءهُ

أهبتُ بالحظ لو ناديتُ مستمعاً والحظ عنّيَ بالجهال في شُغُلِ

فلو وجد التوفيق لهذا الامر بين الناس بان تكون الخيرات في هذه الدنيا بحسب استحقاقهم من جهة جدّهم وفضلهم وعقلهم لكانت الالفة بينهم دون خصام ولا تذمُّر فلا نعود نسمع زيداً يقضي ايامهُ واعوامهُ متذمّراً من معاكسة الدهر لهُ واننا رأيتهُ وجدتهُ متشكّياً من قلّة حظهِ من الناس لانهُ يرى عمراً وهو احطُّ منهُ في كل ذلك بعكسه موفّقاً ناجحاً متقدماً. فهذه الاسئلة الثلثة تعارض مبادئ الالفة التي تكلمنا عليها على ما يظهر لطارحيها وهي لا تخلو من اهميَّة النظر فيها ولاسيَّما هذا الاخير المتعلق بتباين الحظوظ وتعاكس الطوالع فان فيهِ والحق يقال ما يقضي بالحيرة والدهشة لما في مطاويهِ من الغموض والاشكال حيث نرى هذا ذكيًّا تقيًّا مكدًّا مجدًّا ومع هذا نراه خاوي الوفاض بادي الانفاض وهو يصرخ مع الشاعر قائلًا:

ارومُ بسطةَ كفٍّ استعين بها على وفاء حقوق ناملي قِبَلي
والدهر يعكس آمالي ويقنعني من الغنيمة بعد الكدّ بالقَفَلِ

ويزيدهُ في وغر صدرهِ من معاكسة دهرهِ ما يراه في جارهِ وهو قليل العقل والفضل ومع ذلك هو حسن الحال كثير المال لا تسع اهراوءهُ ما يأتيهِ من الغلال

اقول ان الجواب على هذه الاسئلة يروقكم وفيهِ تتمَّة الفائدة من خطابنا في

الالفة وهو من المباحث التي تدور عادةً في مجالس الناس فيشوق كلاً الوصول الى معرفة دخيلة الامر منها. لكن لسوء الحظ قد عاكسني الوقت الآن فلم يبقَ لي منهُ ما يفي بالمطلوب. الّا انهُ وعدني بفرصة أُخرى ان شاء الله فارجو قبول العذر والاخذ بوعدهِ ولكن عدت فاسترحمتهُ طالباً منهُ هنيهةً للجواب على السؤال الاوَّل دفعاً لما عساه يخالج صدور هؤلاء السائلين الثلثة من الخاتلة في المطل حتى اذا نال الاول منهم مطلوبه عاد الآخران على ثقة من الوعد. فاقول جواباً على (السؤال الاول) وهو كما تقدم كيف تعلّم الانسان الاول في بدء وجوده لغةً هي مرضع لباقي اللغات وهل وجدت الالفة قبلهُ حتى يتعلّم منها الكلام وهل يولد الآن احدٌ من الناس ينطق بلغةٍ دون ان يتعلّمها

والجواب هو ان اصدق تاريخ للكون البشري وهو الكتاب المقدَّس قد افادنا ان الله تعالى جلَّ جلالهُ وتسامى كمالهُ قد خلق الانسان الاوَّل كاملاً مستوفياً كل ما كان لازماً من المعارف لادارة المعيشة الانسانيَّة: ولمَّا كان معدًّا لأن يكون ربَّ عائلةٍ عظيمة اعطاه من العمر جانباً عظيماً ٩٣٦ سنة ليعلّم اولادهُ ونسلهم ما كان لازماً لحياتهم وذكر هذا الكتاب العزيز أن آدم سمَّى كلًّا من الحيوانات باسمائها وكان كما سمَّاهُ وبهذه العبارة اشار الى انهُ كان يعرف لغةً وكان يعرف ايضاً طبائع تلك الحيوانات وخصائصها والّا لما كان كلّ حيوان كما سماهُ. ثمَّ ذكر ان الله يستحسن ان يكون آدم وحدهُ بل خلق لهُ معيناً واليفاً وهي حواء. قال فيلسوفنا الشهير مار توما: «ولمَّا كانت الاشياء في البدء أبدعت من الله لا لتوجد في انفسها فقط بل لتكون مبادئ لغيرها ايضاً صدرت على حالٍ كاملة لتقدر ان تكون فيها تلك المبادئ. والانسان يقدر ان يكون مبدأً لآخر لا بالتوليد الجسماني فقط بل بالتعليم والتدبير ايضاً. ولهذا كما أبدع الانسان الاوَّل كاملاً في البدن ليقدر حالاً على التوليد كذلك أبدع ايضاً كاملاً في النفس ليقدر حالاً على تعليم غيرهِ وتدبيرهِ. وليس لاحد ان يعلّم ما لم يكن هو عالماً ومن ثمَّت أبدع الانسان الاوَّل عالماً بجميع الاشياء التي من شأن الانسان ان يتعلمها وهي جميع تلك الاشياء الموجودة بالقوة في المبادي الاولى البينة بانفسها اي جميع ما يقدر الناس ان يعرفوه بالقوَّة الطبيعيَّة. ثم انَّ تدبير الانسان لحياتهِ وحياة غيرهِ لا يقتضي فقط ما يمكن معرفتهُ بالقوَّة الطبيعيَّة بل معرفة ما لا تصل اليه المعرفة الطبيعيَّة ايضاً من حيث ان حيوة الانسان متَّجهة الى غاية فائقة الطبع كما اننا لا بدَّ لنا في تدبير حياتنا

معرفة عقائد الايمان وعليه فالانسان الاول قد بلغ من معرفة هذه الامور الفائقة الطبع مقدار ما كان لازماً لتدبير الحياة الانسانيّة باعتبار تلك الحال ». ثم زاد هذا العلّامة على هذا الكلام فقال : « انَّ آدم وضع اسماء لجميع الحيوانات واسماء الاشياء مناسبة لطبائعها فاذن كان آدم يعلم طبائع جميع الحيوانات وبجامع الحجّة كان يعلم جميع الاشياء الأُخر » انتهى قول هذا الفيلسوف .

وممّا تقدَّم عرفتَ ان آدم الجدّ الاول للجنس البشري خُلق من الله متعلماً لغةً وكل ما كان لازماً لادارة المعيشة وها ان بكريّ اولاده قاين وهابيل اتخذا لمعيشتهما صناعة الزراعة ورعاية المواشي وتربيتها وهذان الفنّان هما الاولان للمعيشة البشريّة وعليهما مدار التجارة والمعاملات وهما مصدر الثروة والاستغلال . ثم ذكر الكتاب عن ابن قاين المدعو اخنوخ انهُ بنى مدينةً ثم ذكر عن يوبل انهُ كان يضرب بالعود والمزمار وهو فن الموسيقى الذي يطرب الخواطر ليس من الانسان فقط بل من الحيوانات ايضاً . وها انَّ الاقدمين كثيراً ما ذكروا عن رعاة المواشي ضرب العود والزمار إشعاراً بما قدمنا من ان هذا الفن الشريف وهو الفن الموسيقيّ قد وجد منذ الاول مع الانسان الاول . ثم ذكر الكتاب ان توبال قاين وهو اخو يوبل المذكور كان الضارب لكل آلة من حديد ونحاس وذهب وهذا العمل الكبير يستلزم علم كشف المعادن والمناجم ولا تخفى اهميّة هذا العلم ونقول بالاجمال اذا نظرنا الى الشعوب القدماء كالمصريين والفينيقيين والاسرائليين والاشوريين والفرس واليونان وغيرهم من امم الشرق المتأصلة في القدامة وجدنا الفنون والصنائع والاختراعات والعلوم باجمعها كانت زاهيةً زاهرة عندهم وكثيرٌ منها باد معهم وبعض ما تبقّى من آثارهم لا نعرف ونحن في عصر النور كيف عملوه . . .

فكيف يسوغ والحالة ما ذكر ان نحطّ بالانسان الى المنزلة السافلة التي اراد البعض ان ينزلوهُ فيها خالياً عارياً من كل علم وادب وفهم كانما هو بهيمة ترعى في البراري والقفار على حين انهُ هو السيد العظيم الحكيم الذي وحدهُ قدر ان يعرف كل ما في هذه الخلائق والكائنات ارضيّةً وسماويّةً من الغوامض والاسرار ومن المنافع والاضرار . فقد هبط بطون الارضين فعرف خزائنها وغاص في أعماق البحار واستخرج درّها ودفائنها وجاب هذه الكرة التي هو عليها فعرف طبائع وخصائص كل ما فيها من نبات وجماد وحيوان ودبيب وطائر . ثم طار محلّقاً ببصره في الجوّ فوقه الى الكواكب السمويّة

كالشمس والقمر والنجوم فعرف مدارها وادوارها وعدَّد ساعات ليلها ونهارها فاستخلص من كل مباحثهِ هذه ما عاد عليه بجزيل النفع في تدبير حياتهِ ورفاهيتهِ حتى لو قدرنا ان نعدّ ما عملهُ الانسان من اختراعات واكتشافات وفنون وصنائع لا تقتضي ذلك منّا اعواماً ومجلّدات ضخاماً وكل هذا دليل ساطع كالشمس وسط النهار على ان الانسان لم يوجد قط كما احبُّوا ان يوجدوه بهيمة ترعى عُشب الارض. فلو رفعنا الانسان من هذا الكون لخلنا الارض عادت ثانيةً «توه بوه» كما قال الكتاب اي خاوية خالية والسرُّ بالسكّان لا بالمكان

امَّا انتم يا معاشر الادباء ارباب هذه الاخويات والجمعيات الكريمة فلقد استجمعتم والحقُّ شاهد لكم من منافع الانسانيَّة ومحاسنها اسماها واسناها اذ اخذتم من عواطف البشريَّة اشرفها واحلاها وهي عاطفة الرأفة والحنان وعلى هذه القاعدة الذهبيَّة بنيتم معاهد اخوياتكم وجمعياتكم فتفانيتم في محبة القريب وتفانيكم هو حياة وعمران. وبذلتم بجانب المسكين الدراهم دون التفات الى ذهاب اموالكم اعتقادًا منكم بان هذه التجارة كلها ارباح. ثم ان كانت الالفة للانسان مورد تهذيب ونجاح فالجمعيَّة مؤلفة من نخبة شبّان ادباء علماء ذوي حميَّة واريحيَّة وهزَّة نفوس عزيزة ابيَّة ومكارم اخلاق ومقاصد نجاح وتراقٍ هي اولى بذلك. وهؤلاء انتم تعلمون ان جميع العلوم والفنون والصنائع ما ترقّت بالحقيقة الَّا بالشركات الخصوصيَّة. ومن المعلوم الثابت: ان القوَّة بالاتحاد. وهذه الممالك العظيمة ما تألفت الَّا من بلدان والبلدان تألفت من مدن والمدن من بنايات. وهاكم هذه القاعة التي انتم فيها ما قامت الَّا من موادَّ ضُمَّت الى بعضها فتماسكت وتلاحمت فألفت معهدًا للاداب من اهل المشيب والشباب. وهذه دعائم الجسور واسانيد القصور فانَّها لا تكون قويَّة الا ان تضمَّ الى بعضها متشابكة متماسكة حتى اذا صُدم احدها من جهةٍ صدمة تلقَّت كلها تلك الصدمة فلا تؤثّر فيها. وهذه جحافل الدول التي تحمي رؤوس الملوك وتيجانها وتردّ الغارات عن رعاياها وبلدانها فان قواها انما هي بالاتحاد. وما لنا وهذه المشابهات والمقايسات وكلٌّ منا لنفسهِ اقوى دليل اذ نحن ضمن هذه غرفة القراءة التي باتت مجتمعاً للاداب والمعارف الحميدة جامعة في خزائنها جانباً غير قليل من التآليف المفيدة كما قد جمعت من الادباء والخطباء وذوي المكارم النبيلة والمعارف الجزيلة جانباً جلوساً على كراسيها وفيها اذن اجتمع من

من العلماء والخطباء ضدان متكلم وصامت وناطق وساكت . وللتوضيح اقول ان اصحاب التآليف المنضودة في هذه الخزائن يعلموننا وهم صامتون فنحن في وسطها مخاطبون ومتخاطبون ومتكلمون ومكالمون ومن تراهُ يخاطب معلمةً ومعلمةً يكالمهُ ولا يستفيد . واي مجلس خيرٌ من مجالس العلماء الادباء . واي وقتٍ اثمن من هذه المواقيت التي احرى ان تدعى يواقيت . واي شيء احبّ لديك من ان تفيد وتستفيد . فلست ارى والحالة هذه الّا ما ترون من ان هذه الغرفة التي هي مجموعة جمياتكم صارت كمدرسة عالية لنا الّا انها لا تُطالب عن اجرة التعليم الا بالرضى والدعاء الحميم فسعداً لكم يا ذويها وشكراً لكم يا منشئيها . اه

عواقب الطمع

بقلم الاديب نجيب افندي الشملاني

كان جبر مطبوعاً على البخل حريصاً على جمع المال فاغراً فاه نحو الدراهم اتّخذ منهُ لهُ الهًا فلم يعبد سواهُ وكان مع ذلك فظّ الطباع سيّئ الاخلاق اذاق زوجهُ ضروب الآلام فعجّل ساعة موتها فماتت وهي في ربيع عمرها تاركةً لهُ ابنةً صغيرة تدعى « لطيفة » كانت سلّمتها قبل وفاتها الى راهبات المحبّة ليقمن لديها مقام امّها . فاعتنين بتربيتها ايّ اعتناء اذ توسّمن فيها دلائل الذكاء والميل الى الفضيلة . فشبّت لطيفة على التقوى ورسخ الدين في قلبها وكانت مع ذلك صناع اليدين ماهرة في كل الاشغال محبوبةً من جميع معلّماتها واترابها

فلمّا انهت دروسها وعادت الى بيت ابيها تولّت كل اعمال الخدمة وقامت بامور البيت قياماً ضُرب بهِ المثل بين كل اهل القرية . وكان الجميع يشيرون اليها بالبنان ويدعونها بالملاك لتقواها وحشمتها ومثابرتها على الاسرار . امّا ابوها فكانت لطيفة تبذل وسعها لتستميل قلبهُ وتزرع فيهِ بذر النزاهة والاستقامة

وكان جبر في اوّل امرهِ قد تأثّر من سجايا ابنتهِ فقدّرها حق قدرها الّا انّ سوء طبعهِ ما لبث ان تغلّب عليهِ فنوى ان يجعل كريمتهُ كآلةٍ لسدّ مطامعهِ . ففي احد الايّام دعاها اليهِ وقال لها : انكِ يا لطيفة ذكيّة الفؤاد متوقّدة الذهن فيكِ من الخصال الحميدة ما يندرُ وجودهُ في غيركِ وانّما ذلك لا ينفعنا فتيلاً وها انا منتظرٌ منكِ اكثر ممّا سبق

— وماذا استطيع على فعلهِ ولم افعلهُ لسعادة والدي وراحتهِ. فمُرْ يا ابتاهُ وانا اليك أطوع من بنانك

— الرأي عندي يا ابنتي ان تسافري الى اميركا فتستعملين هناك ذكاءكِ ونباهتكِ لكسب المال

فما كادت الفتاة تسمع كلام والدها حتى امتُقع لونها وتلعثم لسانها ولم تفه ببنت شفة

— لمَ لا تجيبيني أليس كلامي صوابًا ؟

— ما كنتُ اتوقَّع مثل هذا الكلام منكَ والدي

— ولمَ ذلك أفلا نرى بناتٍ كثيرات يذهبنَ الى اميركا فيُحرزنَ الغنى لاهلهنَّ ؟

— لكنَّ الله لم يخلق النساء للاسفار والتجوُّل بل خلقهنَّ ليسعفنَ الرجال في اعمال البيت. ثمَّ اعتبر ابتِ ما يتهدَّدني من المضارّ الادبيَّة اذا ما سافرتُ وحدي. ام كيف ترضى بان تبتعد عنك ابنتك وهي في شرخ الشباب لا عضد لها ولا مسعف ؟

— هذه كلها حجج باطلة واهية تلتجئين اليها لتستري كسلكِ

— وهل رأيتني قطّ متقاعدةً متقاعسة عن تتميم واجباتي ؟...

— مهما فعلتِ لا اكترث لهُ ان كنتِ لا تسعين وراء المال

— وما لنا وحشد الاموال ولدينا من فضلهِ تعالى ارزاقٌ يكفينا ريعها للقيام بمعيشتنا بسعةٍ وهناء. ثم انَّ الافراط في طلب المال خطيئة لمسيحيين مثلنا

فلمَّا سمع جبر كلام ابنتهِ احتدم عليها غيظًا وشرع يشتمها. ومذ ذاك الحين جعل يعاملها اسوأ معاملة ويعارضها في كل اشغالها وينسب الى الونا. تقواها ويتَّهمها باشنع تهمات حتى نكَّد عيشها ونغَّص عليها أيَّامها. وكانت لطيفة مع ذلك صابرة على هذه المحن تتحمَّل مُضضها بالتؤدة وثبات الجنان اقتداء بهاديها الالهيّ وعملًا بارشادات معلماتها الفاضلات. الّا انَّ اباها لم يزل يضايقها ويعاكسها حتى اضطرَّت اخيرًا الى السفر بعد ان طلبت مشورة ابيها الروحي الذي حرَّضها على الثقة بالله والاتكال على مراحم البتول والتجاء الى الصلاة في ساعة التجربة والبلاء.

. . . .

في اصيل احد أيَّام حزيران من سنة ١٨٨٩ القت السفينة البخاريَّة « برازيل » مراسيها في مرفإ ريوجانيرو فخرج الركاب الى البرّ وكان في جملتهم بعض السوريين

المهاجرين لاقاهم الى المركب اصدقاؤهم فساروا بالوافدين الى بيوتهم. اما لطيفة وكانت من جملة المُنجرين فلم تجد احداً ينتظرها فتوكَّلت على الله وحملت صندوقتها وذهبت الى اسواق المدينة على غير هُدًى حتى رأت باب كنيسة فعنَّ لها ان تدخل وتشكر الله على وصولها بالسلامة وتطلب نعمتهُ ليصونها في غربتها من كل الاخطار

وبعد ان صلَّت طويلًا بحرارة همَّت بالخروج لكنَّها قالت في نفسها: « اين امضي وايُّ باب اطرق وانا غريبة الدار واللسان وعمَّا قليل سيرخي الليل سدولهُ فاولى بي ان ابقى هنا وارقد تحت رواق الكنيسة على الحضيض تحت كنف أمي السماويَّة فهي تظلّلني بجناحيها فآمن بشفاعتها من طوارق الحدثان. ثم سدَّت رمقها بكسرة من الخبز وجعلت صندوقتها وسادةً ورقدت عند باب الكنيسة تحت تمثال للبتول يزين وجه الباب...

وعند الصباح حضرت الذبيحة الطاهرة وصلَّت صلواتها المألوفة ثمَّ خرجت وهي تبتهل الى الله ليسهِّل لها طريقها ويرعاها بعينهِ الساهرة. لكنها اذ لم تكن تعرف الشوارع ولا تفهم اللغة لتستهدي الى سبيلها وقفت متحيّرة امام باب الكنيسة محتارة فلمح منها ذلك رجل فاضل سوريٌّ فتحنَّن عليها وتقدَّم اليها قائلًا: « انتظريني هنا ريثما اسمع القداس فاقودكِ الى منزل تسكنينهُ وادبّر لكِ شغلًا ترتزقين منهُ...». ثم فعل كما قال ودبّر للسكينة منزلًا واشترى لها «كشَّة» وهو العمل الوحيد للسوريين في تلك الجهات وسلَّمها بضاعةً وبعد ما علَّمها طريقة البيع تركها وشأنها

كانت لطيفة وهي في المدرسة تسمع معلماتها يصفنَ لها ضوضاء العالم وشرورهُ الجمَّة فما مرَّ عليها زمن قليل حتى شاهدت الامر بالعيان فلزمها ان تخوض في هذا البحر العجّاج وتختبر ما يكنُّهُ في غورهِ من المخاطر والاهوال. لكنَّها تذكرت وصيَّة مرشدها الاخيرة فلاذت باهداب البتول الطاهرة وتدرَّعت درع الصلاة واخذت تلازم مهنتها الشاقَّة لتسدَّ رمقها وتربح بعرق جبينها شيئًا من الدراهم ترسلهُ الى والدها. وكانت مع ذلك تتحايد كلَّ ما من شأنهِ أن يرميها في حبائل العدوّ ويجلب لنفسها الدمار

الَّا انَّ ابليس خزاهُ الله سوَّل لبعض الشبَّان ممَّن نضب ماء الحياء من جبينهم ان يوقعوها في اشراكهم. وكان منهم شابٌّ يدعى ناصيف وقعت لطيفة في عينهِ موقع الاستحسان فاخذ يترصَّدها وينصب لها المكايد الى ان التقى بها ففاتحها بهواهُ على انَّ الفتاة العفيفة نفرت منهُ وولَّت الادبار وانتصرت عليهِ بمعونة الله ولم ينجح فيها لا الوعد

ولا الوعيد. فلمَّا رأى خيبة مسعاهُ اصلاها مذ ذاك حربًا عوانًا واذاقها مرَّ العلقم

وليست هذه الحرب الوحيدة التي نشبت على لطيفة بل تناوبتها سهام التجارب حتى عيل صبرها وكتبت الى والدها تخبره بما اصابها في غربتها من العذاب والمرائر وتتأسف على تلك الأيام التي قضتها في المدرسة وفي دار ابيها حيث يخيّم السلام وراحة الضمير. فلمَّا وصل كتابها الى ابيها ولم يرَ فيهِ ما كان يؤملهُ من المال كتب اليها يوبّخها توبيخًا شديدًا على تقصيرها حتى زاد في طين شقائها بلّةً وفي طنبور بلاياها نغمةً

وكان في الدار التي تسكنها لطيفة صبيةٌ تباريها عمرًا وتخالفها اطوارًا فدخلت عليها على اثر وصول كتاب والدها فوجدتها غائصةً في بحر الغمّ والكدر فلمَّا اطّلعت على سبب حزنها جعلت تزفُّ اليها من النصائح او بالحري من وساوس الشيطان ما اضاق ذرعها وكسف بالها لاسيَّما اذ سمعت تلك الفتاة تدعوها الى خلع ثوب الاحتشام ونبذ الحياء والخجل والتردُّد الى محلّات الملاهي زاعمةً انَّها تحصل بذلك على مال اوفر من مال قارون . . .

امَّا لطيفة فما طرق هذا الكلام مسامعها حتى تميَّزت غيظًا وطردت من غرفتها تلك التي تجاسرت فعرضت عليها مثل هذه المشورة وقالت لها: «اعلمي اني اوثر الموت جوعًا من ان اعمل بنصيحتكِ التي تؤدي بي الى اهانة الله. فالادب والاحتشام هما افضلُ لديَّ من اموال الارض بكمالها والتقوى عندي كنزٌ لا توازيهِ كنوز الدنيا برمَّتها». قالت هذا واقفلت بابها ولم تعد تنظر الى زميلتها البتَّة

. . . .

في اصيل يومٍ من ايام تموز من سنة ١٨٩٢ بعدما تعبت لطيفة النهار كلَّهُ ولم تبعْ شيئًا بل اشتدَّت عليها مضايقة ناصيف ومن هم على شاكلته دخلت حجرتها وغلقت بابها وجثت امام ايقونة البتول وهي تذرف الدموع وتصلّي بحرارة كي تقيها شرَّ هؤلاء الأبالسة. وفيما هي على هذه الحال اذ فُتح باب غرفتها بغتةً ودخل منهُ والدها. فعندما رأتهُ تحوَّل دمع حزنها الى دمع فرح وهرولت مسرعةً لتعانقهُ فابتدرها بضربةٍ القتها على الارض وقال لها: «اتيتِ الى هنا حتى تتنسَّكي كان الاحرى بكِ ان تذهبي وتسكني المغاور. وبدلًا من ان تكدّي وتجتهدي لكسب المال اراكِ تقضين الوقت جزافًا في الصلاة فلا حيَّاكِ الله ولا بيَّاكِ» . . . .

مرَّ على جبر بضعة ايام في المدينة تعرَّف باثنائها على ناصيف فتصادقا وتحالفا « انَّ الطيور على اشكالها تقع ». ثمَّ طلب ناصيف من صديقهِ ان يسمح لهُ بالاقتران بلطيفة لقاء مبلغ من المال انقدهُ اياهُ في الحال فما رأى جبر المال في يدهِ حتى وعدهُ حالًا قبل ان يستشير ابنته بذلك وقبل ان يفحص عن حالة هذا الشاب وآدابهِ كأنَّ الابنة متاع يهبها او يبيعها لمن يشاء. ولم يمضِ ايام طوال حتى اصبحت لطيفة زوجةً لناصيف مع ما كانت تعرفهُ من قلة آدابهِ ومن قبح سيرتهِ وسوء سلوكهِ. ففرح الوالد بهذا الاقتران لانهُ تملّص من ابنتهِ التي كانت على عاتقهِ حملًا باهظًا. ثمَّ تركها وتوغَّل في داخليَّة البلاد حيث اكترى لهُ بيتًا منفردًا وجعل همَّهُ حشد الاموال فجمع مبلغًا وافرًا اودعهُ احد المصارف

امَّا ناصيف فعندما اصبحت لطيفة في حوزتهِ اجبرها على حمل « الكشَّة » والتجوُّل وهو ألف الحان ومعاقرة الخمرة مع اصدقائهِ الذين هم على شاكلتهِ

. . . .

مضت سنتان على هذا الاقتران المشؤوم ذاقت لطيفة باثنائهما العذاب الوانًا ومن سوء المعاملة اشكالًا وهي وديعة كالحمل صابرة طائعة تتذكر نصائح معلماتها فتتبعها حرفًا بحرف وبالنتيجة انها كانت مثال المرأة المسيحية في كل تصرفاتها وسلوكها مع رجلها الذي كان يعاملها معاملة السيد لعبدهِ. حتى اخيرًا مرضت مرضًا ثقيلًا فقصد ناصيف ان يودعها في احدى مستشفيات البروتستنت لكي يتخلص من الاعتناء بها الَّا انَّها لم ترضَ بذلك وتوسَّلت اليهِ بكل ما لديها من القوة حتى يقودها الى مستشفى راهبات المحبَّة اللواتي درست عندهنَّ حتى تتمكَّن من الحصول على الاسرار المقدَّسة قبل مفارقتها دار البوار لأنَّها شعرت بدنو اجلها وان ايَّام غربتها اوشكت ان تنتهي امَّا هو فما زال اصمَّ اخرس كأنَّ قلبهُ قد قُدَّ من صخر فعمد على جرّها عنوة ان ابت وفيما هي تتوسل اليهِ والدموع تسيل على خديها واذا بشيخ جليل دخل عليها فتفرست فيهِ لطيفة وعرفتهُ انهُ ذاك الذي استقبلها يوم وصولها وكان دأبه عمل الخير مع البائسين فعرف ما حلَّ بها وجاء ليغيثها بما لديهِ من الوسائط. ولمَّا وقف على حقيقة الامر انتهر زوجها واوصلها الى منزل راهبات المحبة واودعها هناك وذهب بعد ما اوصى بها الرئيسة

فلمّا حلت لطيفة هذا المنزل اللانكي سكن روعها وتبدَّد عنها كلّ قلق واضطراب واستنشقت نسيم الراحة والسلام. امّا الراهبات فبعد ما وقفن على قصتها اندهلنَ من صبرها وبالغنَ في الاعتناء بها الّا ان الله شاءت حكمتهُ ألّا يدع هذه النفس اللانكيَّة في هذه الدنيا الشقية وفي ١٥ آب من سنة ١٨٩٤ اسلمت روحها بهدوّ وسكينة بين يدي خالقها بعد ما تزودت بزاد الراحلين واقتبلت المسحة المقدّسة فدفنتها الراهبات بكل وقار واحترام

امّا ناصيف فانهُ بعد ما صرف آخر فلس في اللهو واللعب قصد حماهُ لعلّهُ يتمكن من المعيشة معهُ وعقبى وصوله تلقى جبر مكتوبًا يُخبَر به بان الصرف الذي اودعهُ مالهُ قد اشهر افلاسهُ. فحلَّ هذا النبأ على جبر حلول الصاعقة وضاقت الدنيا لديهِ واظلمت الشمس بعينيهِ واخذ يشتم ويسبّ ويلعن ويرغي ويزبد حتى مُسَّ بجنون... وفي الليل بينما كان ناصيف راقدًا قام جبر واخذ قليلًا من البترول واوقد النار في البيت فالتهمت عن اخرتهِ وكان حظهما في اخرتهما كحظهما في الابدية

مطبوعات شرقية جديدة

KUSEIR 'AMRA, ETC,
Topographische Reisebericht von D^r A. Musil
I. Theil, mit 2 Plaenen u. 20 Abbild., Wien, 1902

قصير عمرة

سبق المشرق (١: ٦٦٥ و٤: ٧٦٥) فذكر مرارًا ما اكتشفهُ الدكتور موسيل ترّيل كليتنا قبل ثلاثة اعوام من الآثار النفيسة في بلاد موآب جنوبيّ البحر الميت وشرقيّهُ. وها هو اليوم قد نشر في مجموع اعمال المجمع العلمي في فينّة الجزء الاوّل من اخبار رحلتهِ الى تلك البلاد القاصية في غاية أيّار من سنة ١٨٩٨ وفي ٩ تموز ١٩٠٠ وقد تفقد عدّة قصور قديمة لم يكد العلماء حتى الآن يعرفون اسمها فضلًا عن جسمها كقُصَير عمرة والازرق والخراني والموقّر وقصر الحمّام وقصر الطوبى وقصر باير

واعظم هذه القصور شأنًا قصير عمرة وهو عبارة عن بناية فخيمة تجمع بين مزايا الصروح الملكيَّة والحصون. وفي داخل هذا القصر الجليل قاعات فسيحة على جدرانها

نقوش بديعة تمثّل صور رجال وحيوانات وشجر وادوارًا من حياة اهل البادية كالصيد والقنص والجريد. وقد اخذ الدكتور موسيل رسم هذه الصور فاثبتها في كتابهِ وفيها من الدقة ما لا يأتي بهِ الّا مصوّر بارع. امّا اصحاب هذه الآثار الفاخرة فكنّا ارتأينا في المشرق (١ : ٤٨٤، ٦٣٠) استنادًا الى وصف الدكتور العلّامة انهُ من المحتمل ان تكون هذه الابنية من اعمال الملوك الغساسنة الّا ان هذا الرأي الذي دوَّنهُ الدكتور في رحلتهِ (ص ٤٧) يظهر لنا الآن ضعيفًا لاسيّما انَّ حضرة الرحّالة قد وجد بين الاخربة كتابة كوفيّة باسم الخليفة العبّاسي احمد المستعين بالله. ولا بدَّ للحكم الفصل في هذا الشأن من مراجعة هذه الآثار وفحصها فحصًا تامًّا. وفي خاطر الدكتور ان يعود ثالثةً الى هذه القصور فيزورها ويتثبَّت ما لم يمكنهُ حتى الآن الوقوف على صحّتهِ

امّا خطر هذه الاكتشافات فيبدو لكل ذي العبرة. وقد اثنى على صاحبها جمهور العلماء وبنوا عليها آمالًا طيبة. ولا يسعنا نحن الّا ان نضمّ صوتنا الضعيف الى اصواتهم ونشكر صديقنا على عظم همّتهِ ونتمنّى ان يتحفنا قريبًا بما بقي من اخبار رحلتهِ. ونطلب اليهِ الّا يحرمنا في قسم كتابهِ الثاني من خارطةٍ توقفنا على الامكنة التي زارها ومواقع القصور التي اكتشفها ه. ل

شذرات

عاديّات جديدة مكتشفة في مادبا — لم ينسَ قرّاؤنا الفسيفساء العجيبة التي اكتُشفت قبل بضع سنوات (المشرق ١ : ٢١٣) في مادبا وهي التي تمثّل بلاد فلسطين ومعابد اورشليم. واليوم قد افاد الخوري اللاتيني الفاضل الاب منفريدي خبر اكتشاف آخر ذي شأن وهي قطع عديدة من الفسيفساء وُجدت في آذار من السنة الجارية في شرقيّ جنوبيّ المدينة موقعها في محلّ كنيسة مادبا القديمة المبنيّة في القرن السادس للمسيح وهذه الكنيسة كانت على اسم ايليا النبيّ تُدعى باسمهِ ايليانيّة (Elianée). وهذه الآثار تمثّل عدّة تصاوير من نبات وحيوان ومنها ايضًا ثلاثة اشخاص على هيئات مختلفة وهناك كتابة يونانيّة تذكر كنيسة اخرى على ذكر الرسل واسم الاسقف سرجيوس وذلك في تاريخ ٤٧٣. والمظنون انّ هذا التاريخ يوافق تاريخ بُصرى الذي بدؤهُ سنة ١٠٨ للمسيح

﴿ بارود بلا صوت ولا دخان ﴾ شاع انَّ الكولونل الفرنسيَّ همبرت اخترع بارودًا حربيًّا لا يُسمع لاطلاقهِ صوت ولا يُرى لهُ دخان وقد اختبر الامر على عيان لجنةٍ شكَّلتها الحكومة لفحص البارود المذكور فاستحسنت الاختراع ومنحت صاحبهُ امتيازًا مؤذنًا بصلاحيتهِ للحرب

﴿ عاديَّات كتابيَّة ﴾ جاء في العدد ٤٦٧ من جريدة المعلومات ما حرفهُ :

« ورد على دار السعادة بعض اوراق قديمة كانت محفوظة في الجامع الاموي في الشام لها مساس بالتاريخ فنها ٢٥ صفيحة مزامير و١١ صفيحة توراة الاسفار الخمس ونُسخ كثيرة من التوراة والانجيل مكتوبة باللسان السوري القديم ومنها قطع مترجمة الى لغة سوريًّا وفلسطين وهذه تدلُّ على انَّ السامريين كانوا يسكنون الشام و٧٨ قطعة من المزامير مكتوبة بالحروف اليونانيَّة باللغة العربيَّة وهي تمثل صورة تلفُّظ الكلام العربي قبل انتشار الدين المحمَّدي ومن هذه ١١٧ صفيحة مكتوبة فيها صورة دعاء نصارى سوريَّة وهذه الصُّحُف محفوظة في قبَّة المزينة من الجامع الاموي واهمّ هذه الاوراق قسم مكتوب بالفرنسويَّة القديمة وهو من عهد محاربات الصليبيين »

(قلنا) اننَّا اشرنا في المشرق (٤٧:٥) الى هذا الاكتشاف المهمّ الذي اطَّلع عليهِ المسيو فيوله العلاَّمة الالمانيّ . وقد بلغنا انَّ الحضرة الشاهانيَّة طلبت هذه الاوراق الى الاستانة وفي نيَّتها حفظها الله ان تهديها الى جلالة امبراطور المانية . ولنا في هذا الاكتشاف كلام نثبتهُ عند سنوح الفرصة . وممَّا لا ريب فيهِ انَّ القطع اليونانيَّة التي تمثل اللفظ العربيّ لم تسبق عهد بني اميَّة

﴿ اقدم التصاوير ﴾ ذكرنا في العدد ١١ من سنتنا الجارية (ص ٥٠٢) التصاوير القديمة التي اكتُشفت حديثًا في مناور دردوني (Dordogne) من معاملات فرنسة . وقد توفق المسيو كيتان والابيل برويل الى اكتشاف مغارة أُخرى هنالك في أيَّار الماضي وهي مغارة فون دي غوم (Font de Gaume) وجدا فيها على مسافة عشرة امتار من مدخلها صورًا مرسومة في جدرانها على طول ١٢٠ مترًا تمثل الحيوانات السابقة لعهد التاريخ في فرنسة كالمثوث والبقر الوحشي والأيل . وبعض هذه التصاوير ملوَّنة بالاحمر باوكسيد الحديد والسيليس او بالاشقر بالمغرة والمنغانيس وعلى اكثرها غشاء من الكلس المتحجر قد تكوَّن فوقها من تحلُّب الماء في المغارة وهو احسن ضامن لقدم هذه التصاوير وارتقائها الى اعصار لا يعلم عددها الَّا الله

أسئلة وأجوبة

س سألنا احد ادباء البلدة ١ هل يقدّم على اسم « استانة » ال التعريف ام لا. ٢ ما اصل الهاء في « امّهات » جمع « امّ » . ٣ ما اصل لفظة « الهوينا » . ٤ كيف يفسّر قول العامّة للرجل « رجّال » لنوبات

ج نجيب على (الاول) انّ العادة قد جرت بادخال ال التعريف على « استانة » على طريقة الاسماء المعرّبة فيقال الاستانة العليّة . وعلى (الثاني) انّ جمع « امّهات » لامّ من الجموع الشاذّة واصلها سريانيّة « أَمْهَاتَا » . وعلى (الثالث) انّ الهُوَينا تصغير هُونى او هَونى موئنث الاهون كما نصّت عليه المعاجم . وعلى (الرابع) انّ « الرجّال » أصلها « الرَّجّال » اي الماشي فأُطلقت على الرجل . كما يقول اهل مصر للرجل « الرّاجل »

س وسأل الاديب اسكندر افندي مافي هل هيرودس طالب قتل المسيح هو نفس هيرودس قاتل يوحنا المعمدان والساخر بالمسيح في آلامهِ

هيرودس

كلاّ انّ هيرودس طالب قتل المسيح هو هيرودس الكبير توفي في السنة الرابعة للميلاد . امّا قاتل يوحنا المعمدان والساخر بالمسيح في آلامهِ فهو سادس ابناء هيرودس الكبير ويدعى هيرودس انتيباس وقد مات في المنفى . ولهُ ابن اخ يُدعى هيرودس اغريباس وهو قاتل يعقوب الرسول ابن زبدى ل . ش

س س سألنا حضرة الخوري الفاضل ميخائيل زلحف هل يُعدُّ اراتيكيًا من نكر انّ المسيح لم يتجسّد لخلاص غير المؤمنين

تجسُّد المسيح لخلاص غير المؤمنين

ج انهُ لمن عقائد الايمان التي اثبتها المجمع التريدنتيني انّ الله لا يريد فقط خلاص المختارين . وكذلك انهُ من العقائد الكاثوليكيّة المثبتة في دستور الايمان النيقوي انّ المسيح تجسّد لخلاص المؤمنين . اما القول بان الله يريد خلاص كل البشر من مؤمنين وغير مؤمنين وانّ المسيح تجسّد ومات لهذه الغاية فهو رأي راهن مقرَّر في الكنيسة الكاثوليكيّة وعند جمهور اللاهوتيين كما يظهر من القضيّة الخامسة التي رذلها اسكندر الثامن وهي « ان المسيح بذل نفسه ضحيّة لابيهِ ليس فقط لاجل المختارين بل ايضًا لاجل كل المؤمنين ولاجلهم فقط » ومع هذا فانّ ناكر تجسُّد المسيح لاجل غير المؤمنين لا يستوجب وصمة الهرطقة لانّ الكنيسة لم تثبت هذا التعليم كعقيدةٍ من الايمان ي . غ